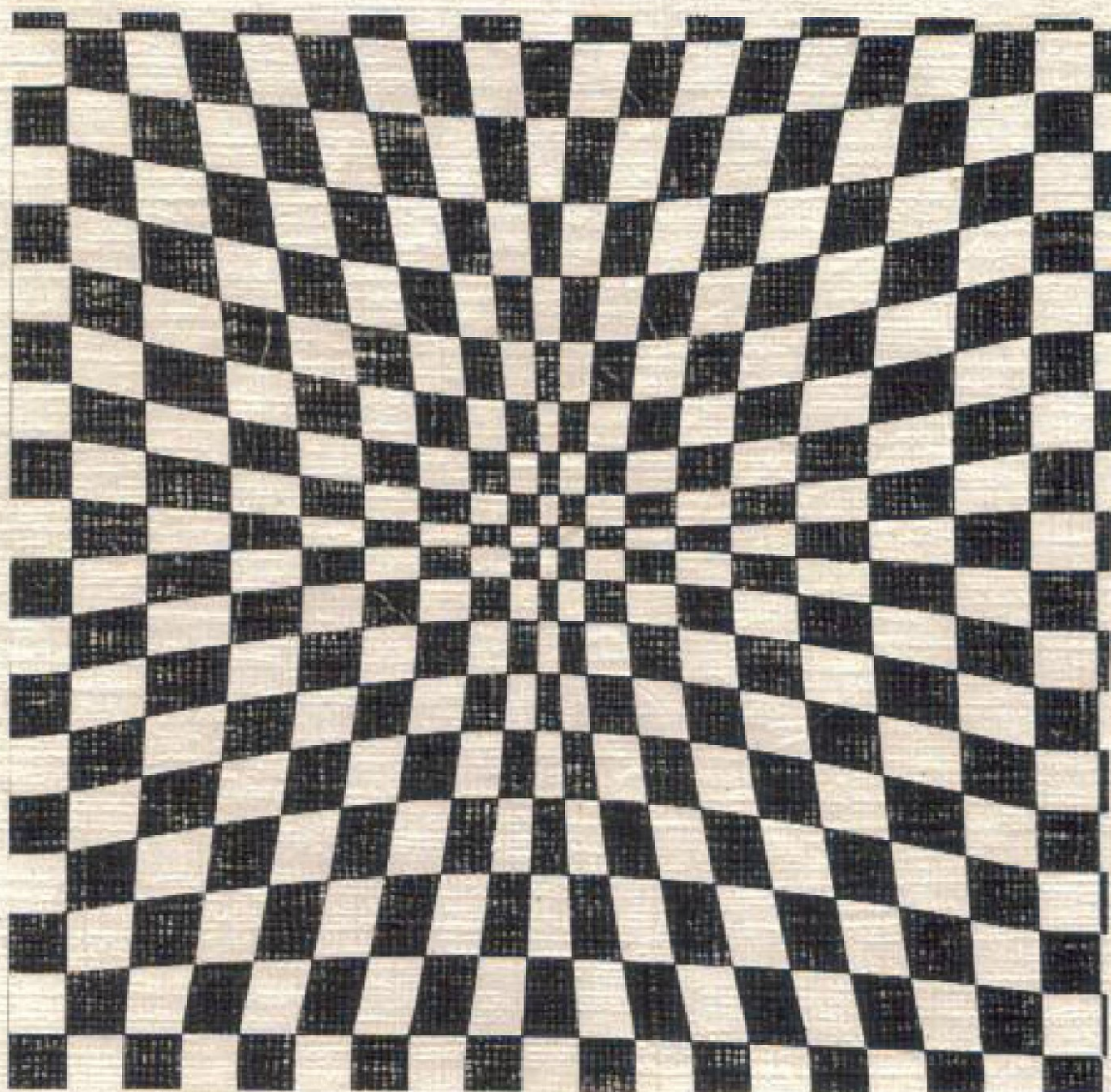


ارنستو ساباتو



جميع الحقوق محفوظة للناشر
الطبعة الأولى ٣٠٠٠ / ٧ / ١٩٨٨

الأهالي

للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق هاتف: ٤٢٠٢٩٩ ص.ب ٩٥٠٣ تلکس ٤١٢٤١٦

إلى صداقة روخيليو فرينخيريو
التي صمدت لكل آمال الأفكار وتقلباتها.

« كان هناك ، في جميع الأحوال ، نفق واحد فقط
مظلم وموحش : هو نفقي أنا »

سأكتفي بالقول إني «خوان بابلوكاستيل»، الرسام الذي قتل ماريا ايربارني،
اظن ان المحاكمة ما تزال ماثلة في ذاكرة الجميع، ولا حاجة لايضاحات أوفى عن
شخصي .

وعلى الرغم من أن احداً لا يدري - حتى ولا الشيطان - ما الذي يتعين
على الناس ان يتذكروه، ولماذا، فاني، في الواقع، لا اؤمن بوجود ذاكرة جماعية
ابداً - ولعل الأمر لا يعدو أن يكون شكلاً من أشكال دفاع الجنس البشري عن
ذاته . ان عبارة «كل زمن مضي كان أفضل» لا تدل على أن قليلاً من الأمور
السيئة كان يحدث فيما سلف، وانما تعني ان الناس لحسن الحظ، لا يتذكرون تلك
الامور، بل يلقونها في غياهب النسيان . وعبرة كهذه، لا تقبل على اطلاقها
طبعاً، فأنا مثلاً، اتميز بكوني أفضل تذكر الامور السيئة، ولذا يمكنني أن أقول «ان
كل زمن مضي كان اسوأ» وإن لم يكن الأمر كذلك، فإن الحاضر يبدو لي بالغ
السوء كالماضي، اتذكر العديد من المصائب، والوجوه المستهترة القاسية والافعال
السيئة، والذاكرة بالنسبة لي، أشبه ما تكون بنور باهت يضيء متحفاً قذراً للعار.
كم مرة جعلتني قراءة خبر في قسم الجرائم في الجريدة، انتبذ ركناً مظلماً من الرسم
طوال ساعات (. . . لكن الحقيقة هي ان ما هو أكثر خزيًا للجنس البشري لا
يظهر في تلك الصفحات، والمجرمون هم - إلى حد ما - أناس اكثر نقاء، وأقل
ايذاء، لا أجزم بذلك لأنني - أنا بالذات - قتلت مخلوقاً بشرياً، وانما لأنني اؤمن به
ايماناً نزيهاً ومتأصلاً . هذا انسان مؤذ . . . ؟ . . . ليتم القضاء عليه اذن ولينته
الامر . ان هذا ما أسميه عملاً صالحاً . فكروا كم هو ضار للمجتمع إذا ما واصل
هذا الانسان نشر سمومه، وإذا ما اكتفينا بدلاً من القضاء عليه باللجوء إلى أعمال
السدس والتشهير وما الى ذلك من الحقارات الماثلة، كي نحول بينه وبين ما اقترفه
من اذى . وفيما يتعلق بي، يجب أن اعترف الآن بأنني اشعر بالأسف لأنني عندما

كنت حراً لم احسن اغتنام الفرصة، فاقتل ستة أو سبعة من الأشخاص الذين اعرفهم.

ان العالم لفظيع . . حقيقة لا تحتاج إلى برهان . وفي جميع الأحوال قد تكفي الواقعة التالية لاثبات ذلك . . في احد معسكرات الاعتقال شكا عازف بيانو من الجوع، فأجبروه على أكل فأرة . . ولكن، وهي حية .
ليس هذا ما أرغب في الحديث عنه الآن، ومع ذلك . إذا سنحت لي الفرصة سأحدث فيما بعد، عن موضوع الفأرة.

اسمي كما قلت، خوان بابلوكاستيل، يمكنكم أن تتساءلوا عما يحملني على كتابة قصة جريمتي، (لا أدري إن كنت قد قلت إنني سأروي قصة جريمتي) وعلى البحث - إلى جانب ذلك - عن نشرها أيضاً. اعرف النفس البشرية تمام المعرفة، ولذا ادرك سلفاً أنكم ستطنون بي الغرور. فكروا كما يحولكم، لا يهمني ذلك البتة، منذ برهة، لم يعد يهمني قيد أنملة رأي البشر وعدالتهم. افترضوا إذن إنني انشر هذه القصة بدافع من الغرور، لكنني في المحصلة النهائية، كائن من لحم، وعظم، واطافر، وشعر، كأني إنسان آخر، ونخيل إلي أنه لمن الظلم أن تطلبوا مني، أنا بالذات أن أتمتع بصفات خاصة. بحسب المرء أحياناً إنه فوق البشر، ثم لا يلبث أن يدرك أنه، حقير وقذر، وغدار أيضاً. ليس في وسعي أن أقول شيئاً عن الغرور فأنا اعتقد أن أي إنسان لا يخلو من هذا الحافز البارز للرفي الإنساني. ويشير في الضحك أولئك السادة، الذين يدعون تواضع انشتاين، أو من هم على شاكلته، وجواباً على ذلك أقول: من السهل على المرء أن يكون متواضعاً عندما يكون مشهوراً، أعني أن يتظاهر بالتواضع، وحتى عندما يتصور أنه لا وجود للغرور البشري إطلاقاً، سرعان ما يتكشف الأمر عن صيغته الأكثر دقة.. غرور التواضع.

ما أكثر ما نصطدم بهذا النوع من الناس...! حتى أن رجلاً حقيقياً أو رمزياً كال المسيح ذاته، نطق بعبارات شتى بدافع من الغرور، أو على الأقل، بدافع من العزة. وماذا نقول عن «ليون بلوى» الذي كان يدفع عن نفسه تهمة العجرفة بحجة أنه قضى عمره يخدم أفراداً لا يصلون إلى مستوى ركبتيه...؟. إننا نعثر على الغرور، في مواضع لا نتوقع وجوده فيها البتة، نجده إلى جانب الطيبة، ونكران الذات والسخاء.

عندما كنت صغيراً، كنت أشعر بالقنوط، من مجرد التفكير بأن أمي لا بد

أن تموت يوماً ما ، (تُعَلِّمنا الأيام أن الموت ليس أمراً محتملاً وحسب ، وإنما مريح أيضاً) لم أكن أتصور أن يشوب أُمِّي أي عيب ، والآن وقد رحلت ، يتعين علي أن أقول ، إنها كانت طيبة بها في وسع كائن بشري أن يكون . لكنني أتذكر في أيامها الأخيرة ، عندما أصبحت رجلاً ، كم كان يؤلني في البدء ، ان اكتشف في أفضل أفعالها ، شيئاً ما يشف عن الغرور والعزة . هزني أمر بالغ الدلالة عندما أجريت لها جراحة لاستئصال السرطان . كان يتعين علي كي أصل في الوقت المناسب ، أن أسافر طيلة يومين كاملين ، بلا توقف أو نوم ، وحينما وقفت إلى جانب سريرها ، افترَّ حياها الذي علتته غبرة الموت ، ببطء وحنو ، عن ابتسامة ، وتمتت ببضع كلمات تنضح بالرافة (كانت تشفق علي من التعب !) وأحسست في أعماقي بخيلاء غرور غامض لحضوري بهذه السرعة . ابوح بهذا السركي تروا إلى أي مدى لا أعتبر نفسي أفضل من الآخرين .

ومع ذلك فإنني لا أروي هذه القصة بدافع من غرور . ولعلي على استعداد للتسليم بأن في الأمر شيئاً من الزهو والأنفة . ولكن علام هذا الهوس في محاولة تفسير كل أحداث الحياة ؟ كنت أود أن اسرد قصة جريمتي وحسب ، ومن لا تحلو له يجدر به ألا يقرأها ، وان كنت اعتقد ان ذلك لن يحدث لأن أولئك الذين يجرون وراء التفسيرات ، هم بالضرورة ، اكثر الناس فضولاً ، وان ايأ منهم لن يفوت فرصة قراءة قصة الجريمة حتى نهايتها .

قد استطيع الاحتفاظ بالاسباب التي حدثت بي أن اكتب هذه الصفحات من اعترافاتي ، ولكن بما أنه ليس هناك من فائدة لي في أن ابدو شاذاً ، فسأقول الحقيقة ، وهي على كل حال بسيطة للغاية . لقد خطر لي أنه يمكن أن يقرأها كثير من الناس نظراً للشهرة التي أتمتع بها الآن ، وانا ، وان كنت لا أعلق آمالاً كبيرة على البشرية بعامة . وعلى قراء هذه الصفحات بخاصة ، فلا أزال يحدوني أمل ضئيل بأن شخصاً ما سيتوصل إلى فهمي ، حتى ولو كان شخصاً واحداً فقط .

قد يسأل سائل . . . لماذا . . ؟ . . لماذا يكاد يكون الأمل ضئيلاً ، إذا كان

كثير من الأشخاص سيقراءون المخطوط . . ؟ هذا النوع من الأسئلة اعتبره عقيماً، ومع ذلك ينبغي توقعه، لأن الناس تطرح أسئلة عقيمة باستمرار، أسئلة يكشف التحليل - مهما كان سطحياً - ان لا ضرورة لها. يمكنني ان اتحدث حتى العباء، وبصوت مرتفع أمام جمعة تضم مائة ألف روسي من دون أن يفهم لغتي أحد منهم، فهل سيعبر هؤلاء اهتماماً لما أريد قوله؟

كان هناك شخص واحد يمكنه أن يفهمني، لكنه كان بالتأكيد، الشخص الذي قتلته.

يعرف الجميع اني قتلت ماري اريبارني هونتر ، لكن احداً لا يعرف كيف تعرفتها وما هي تماماً حقيقة العلاقات التي ربطت بيننا ، وكيف راحت تختمر في نفسي فكرة قتلها . سأحاول رواية كل شيء بتجرد ، لأنني ، وان كنت قد عانيت الكثير بسببها ، انما لا أزعم لنفسي الكمال .

في قاعة الربيع ، عرضت في العام ١٩٤٦ لوحة سميتها أمومة . كانت على غرار سائر لوحاتي السابقة الكثيرة التي يقول عنها النقاد في لهجتهم التي لا تطاق انها متماسكة . . . جيدة البناء . . . لقد كانت تنطوي على المزايا ذاتها التي يجدها اولئك الثرثارون في لوحاتي دائماً ، بما في ذلك . . . شيء من العمق الفكري .

في أعلى اللوحة من جهة اليسار ، وعبر نافذة صغيرة ، يلوح منظر صغير وبعيد ، منظر شاطئ منعزل ، وامرأة تنظر إلى البحر وكأنها تنتظر شيئاً ما ، ربما كان نداء خافتاً بعيداً ، كان المنظر يوحي برأيي ، بوحدة قلقة ومطلقة .

ما من احد تأمل هذا المنظر ، كان الرواد ينظرون اليه عرضاً ، كما لو أنهم امام امر ثانوي ، أوزخرفي ، وباستثناء شخص واحد ، يبدو ان احداً لم يدرك ، انه يمثل امرأً جوهرياً .

في يوم الافتتاح ، وقفت فتاة مجهولة امام لوحتي طويلاً ، وبدت انها لا تعير اهتماماً ، إلى المرأة العجوز التي تتصدر اللوحة وهي تتأمل صبياً يلعب . وعندما كانت مستغرقة في منظر النافذة الصغيرة ، تأكدت أنها كانت منصرفة عن العالم بأسره لا ترى الناس الذين كانوا يمرون او يتوقفون امام اللوحة .

راقبتها بقلق طيلة الوقت . ثم توارت بين الجموع ، بينما كنت نهياً للتردد يتنازعني خوف لا يقهر من مناداتها ، ورغبة مكبوتة في ان اقوم بذلك . خوف من أي شيء . . . ؟ ربما كان خوف من يراهن بجميع ما يملك في هذه الحياة ، على رقم واحد فقط ، إلا أنني شعرت عندما توارت بالغيط والتعاسة ، وحسبت وانا

أراها تضيع بين الملايين المجهولة من سكان بوينس ايرس ، أني قد لا أراها ثانية .
عدت تلك الليلة إلى المنزل متوتر الأعصاب ، مكتئباً حزيناً .
وحتى انقضاء مدة المعرض ، كنت اتردد يومياً على القاعة ، أقف قريباً من
اللوحة كي أتحقق من الأشخاص الذين يتوقفون أمامها . إلا أن الفتاة لم تظهر
ثانية

وخلال الشهور التالية كنت لا أفكر إلا فيها ، وفي امكانية رؤيتها مرة أخرى
وإلى حد ما ، كنت لا أرسم إلا من أجلها ، وكأن منظر تلك النافذة
الصغيرة ، بدأ ينمو ويغزو اللوحة كلها وأعمالي جميعها .

أخيراً ، رأيتها عصر ذات يوم تسير على الرصيف المقابل . كانت تمشي بتصميم كمن يتوجب عليه أن يصل إلى مكان معين ، في ساعة معينة . عرفتُها في الحال ، وكان بوسعي أن اعرفها في وسط أي حشد ، شعرت بانفعال لا يوصفه . من كثرة ما فكرت بها خلال الأشهر الأخيرة ، ومن كثرة ما تخيلت من أمور ، وجدتني عندما رأيتها أقف حائراً لا أدري ماذا أفعل .

والحقيقة هي أنني فكرت كثيراً ، وخططت بدقة لما سيكون عليه موقعي إذا ما لقيتها . أظني قلت إنني شديد الخجل ، ولذا فكرت كثيراً في لقاء محتمل وفي كيفية اغتنامه . لكن العقبة الكأداء التي طالما تعثرت بها في تلك اللقاءات الخيالية كانت : كيف ابادرها الحديث .

اعرف كثيراً من الرجال الذين لا يجدون صعوبة في تبادل الحديث مع امرأة غريبة . واعترف أنني كنت فيما مضى ، أحسدُهم جداً ، ورغم أنني لم أكن فاجراً أبداً ، أو ، لأنني لم أكن كذلك قطعاً ، فقد رثيت لحالي بسبب فشلي في التواصل مع امرأة في مناسبتين أو ثلاث ، من تلك المناسبات النادرة التي يبدو فيها أنه من المستحيل الخضوع لفكرة أن تكون المرأة بعيدة عن حياتنا إلى الأبد . ولسوء الحظ ، كان محكوماً علي بأن أبقى بعيداً عن حياة أمة امرأة .

في تلك اللقاءات الخيالية ، كنت قد درست احتمالات شتى ، اعرف سجليتي تماماً واعرف أن الظروف الطارئة والمباغلة تجعلني أفقد رشدي من فرط التهور والخجل ولذا ، فقد أعددت بعض البدائل التي كانت تبدو لي منطقية ، أو ممكنة على الأقل (ليس منطقياً أن يبعث صديق حميم برسالة مهينة مغفلة التوقيع إلى صديقة ، لكننا نعرف جميعاً أن ذلك ممكن) .

كانت الفتاة - على ما يبدو - معتادة على ارتياد المعارض الفنية . في حال

اللقاء بها في أحد المعارض ، سأقف إلى جانبها ، ولن يكون الشروع في حديث حول إحدى اللوحات المعروضة امراً معقداً جداً .

بعد ان محصت هذا الاحتمال بدقة ، أهملته ، ذلك إنني لم أكن أتردد على معارض الرسم أبداً . يمكن ان يبدو ذلك موقفاً غريباً جداً من فنان ، ولكن له ما يفسره حقاً ، وانني لعلني يقين من ان العالم اجمع سوف يعطيني الحق إذا ما عزمت على توضيح الاسباب التي تحملني على ذلك ، حسناً ربما أبالغ في قولي «العالم أجمع» لا . لاشك أني أبالغ . لقد علمتني الخبرة ان ما يبدو لي واضحاً وجلياً قد لا يبدو للآخرين من بني البشر كذلك أبداً . وتجاربي المرة تجعلني أتردد الآن ألف مرة ، قبل القيام بتبرير أو تفسير أي من مواقفي ، إذ أكاد انتهي دائماً إلى الانطواء على نفسي ، وإلى الصمت المطبق . وهذا فعلاً ما كان يحول حتى اليوم ، بيني وبين أن أحزم أمري وأروي قصة جريمتي . وفي هذه اللحظات لا أدري ان كان الأمر يستحق أن اشرح موقفني من معارض الرسم بالتفصيل ام لا ، وأخشى ان لم افعل ان تعتقدوا ان الموضوع ليس سوى هوس محض ، بينما يعود ، في الحقيقة إلى اسباب عميقة جداً .

في هذه الحالة ، هناك في الواقع ، أكثر من سبب . . وسأبادر قبل أي شيء آخر فأقول ، انني امقت التجمعات ، والطوائف ، والروابط ، والنقابات ، وبصورة خاصة ، تلك المجموعات من الحشرات التي تنضم تحت لواء المهنة او الهوى او أي هوس من هذا القبيل . فلتك التكتلات عادات تثير السخرية : كتكرار المظاهر ، والمصطلحات المهنية ، وغرور الاعتقاد بالتفوق على الآخرين .

ألاحظ أن المشكلة تتعقد ، لكني لا أرى طريقة لتبسيطها . فمن يرغب في التخلصي عن قراءة هذه الرواية الآن ، يجدر به أن يفعل ، وليعلم انني اعذره ، واتعاطف معه بصورة مطلقة .

ماذا أقصد بتلك العبارة «تكرار المظاهر . .» ؟ ستلاحظون بلا شك ، كم هو مقيت ان يجتمع المرء بشخص لا ينفك يغمز بعينه ، ويلوي بفمه . ولكن هل لكم

ان تتصورا امثال ذلك الشخص وقد انضموا إلى ناد . . . ؟ . لا حاجة بي إلى هذه المبالغات ، وانما تكفي ملاحظة بعض الأسر الكبيرة حيث يتشابه أفرادها في بعض الملامح والايهات والنبرات المعينة . حدث لي ان وقعت في حب امرأة (بالسر بطبعاً) ، وهربت مذعوراً من مجرد احتمال أن أتعرف إلى أخواتها . وفي مناسبة اخرى حدث لي أمر مريع ، إذ وجدت في امرأة ملامح ممتعة جداً ، ولكن ، ما أن تعرفت إلى شقيقتها حتى اصابني الغم والخجل لمدة طويلة ، فاللامح ذاتها التي بدت لي جميلة في تلك ، ظهرت في اختها بارزة ومشوهة بشكل يكاد يكون كاريكاتورياً ، وتصور هذا التشويه لجمال الأخت ولد لدي ، إلى جانب هذا الشعور ، احساساً بالخجل ، كما لو كان يقع علي ، إلى حد ما ، تبعة من جراء ما تسلطه الأخت من ضوء خفي ساخر ، على المرأة التي اعجبت بها جداً .

ربما تحدث لي مثل هذه الأمور لأنني رسام ، فقد لاحظت ان الناس لا يعيرون أي اهتمام لتلك التشوهات العائلية . ويتعين علي أن أضيف ، ان ما يشبه ذلك يداهمني مع اولئك الرسامين الذين يقومون بتقليد استاذ كبير ، من امثال هؤلاء التعساء البائسين الذين يرسمون على طريقة بيكاسو .

وهناك مسألة المصطلحات المهنية ، فهي توصيفات أخرى قلما احتملها ، ويكفي تفحص أي من هذه الأمثلة : التحليل النفسي ، الفاشية ، الصحافة . لا فرق عندي بينها ، فكلها تثير اشمئزازي : لآخذ مثلاً يتبادر إلى ذهني الآن وهو التحليل النفسي . الدكتور بارتوانسان موهوب ، وكنت اعتبره صديقاً حقاً ، إلا أن انضمامه إلى اولئك الرعاع الذين راحوا يلاحقوني ، سبب لي خيبة امل مريرة . لكن لندع هذا جانباً الآن . ذات يوم ، ما كدت اصل إلى عيادته ، حتى بادرني القول ، انه يتعين عليه ان ينصرف ، ودعاني إلى مرافقته . سألته :

- إلى أين ؟

فأجاب :

إلى حفلة استقبال الجمعية .

سألته باستهزاء مبطن :

- أية جمعية؟

إذ تضايقتني جداً هذه الطريقة التي يلجأون إليها في استخدام اداة التعريف :
ال جمعية، ويعنون بها، جمعية التحليل النفسي ، ال حزب، ويعنون به
الحزب الشيوعي . ال سابعة، ويعنون بها سمفونية بتهوفن السابعة .

نظر إلي باستغراب لكنني تحملت نظرتة بسذاجة، وقال :

- جمعية التحليل النفسي يا رجل

ثم رمقني بعينه الشاقتين بنظرة يعتقد «الفرويديون» انها لازمة في مهنتهم
وكان كمن يسأل نفسه، أي نوع من الجنون بدأ ينتاب هذا المعتوه . . . ؟
وتذكرت أني قرأت شيئاً حول اجتماع أو مؤتمر يرأسه دكتور يدعى برنارد
اوبرتراند ورغم قناعتي ان براتولم يكن يعني هذا، سألته ان كان الأمر كذلك . نظر
إلي وهو يبتسم بازدراء وقال :

- انهم ثرثارون - واستطرد - ان جمعية التحليل النفسي المعترف بها دولياً
هي جمعيتنا .

واستدار نحو مكتبه، وبدأ يفتش في احد ادراجة، ثم عرض علي رسالة
باللغة الانكليزية، فتأملتها مجاملة له وقلت :

- أنا لا أفقه اللغة الانكليزية .

واستطرد قائلاً :

- انها رسالة من شيكاغو، تعتمدنا نحن، الجمعية الوحيدة للتحليل
النفسي في الأرجنتين .

فتظاهرت بالاعجاب والاحترام العميق .

ثم خرجنا، واقلتنا سيارة إلى مقر الجمعية . كان هناك عدد غفير من الناس
عرفت اسم البعض منهم كالدكتور غولد نبرغ الذي نال في الأيام الأخيرة شهرة
واسعة فقد زج به مع المرأة التي كان يعالجها سوية في مصح للأمراض العقلية -
نظرت اليه بإمعان حين هم بالانصراف، فلم يبد لي اسوأ من الآخرين انما اكثر

هدوءاً، وقد يعود ذلك إلى حجره في المصحح، أشاد بلوحاتي بطريقة فهمت من خلالها انه يمقتها.

كان كل شيء بالغ الأناقة، وشعرت بالخجل من هندامي الرث، وانتفاخ ركبتى سروالي، ومع ذلك، لم يكن ما كابدته من شعور بالقباحة يعود إلى ذلك تماماً، وإنما لامر لم أتوصل إلى تحديده. وقد بلغ بي الأمر ذروته عندما اقتربت فتاة باللغة الرقة لتقدم لي بعض الشطائر، كانت تتحدث عن مشكلة شذوذ جنسي تتعلق بالتلذذ بالأم الشرج، لا أدري ما هي، ولعل ذلك الشعور ناتج عن الفارق بين قطع الأثاث الحديث العملية النقية، وبين سيدات وسادة بالغي النظافية يتفوهون بعبارات قدرة وبذيلة.

كنت أود البحث عن ملجأ في إحدى الزوايا، لكن ذلك كان مستحيلاً. فالشقة كانت غاصة بمجموعة متماثلة من الناس يتحدثون باستمرار عن أمور متشابهة. هربت إلى الشارع، وعندما التقيت بأناس عادين، (بائع صحف، طفل، سائق) بدر إلي فجأة خاطر عجيب، وهو أن أرى هذا الخليط من الناس محشوراً في شقة واحدة.

لكنني، مع ذلك، امقت من بين الجماعات كلها، جماعة الرسامين بصورة خاصة، لأنني بطبيعة الحال أدري بهم، ومن المعروف أن المرء يمكن أن يكره بحق من يعرف تمام المعرفة. وكذلك لدي سبب آخر لكرهية النقاد، فهم وباء لم أتمكن من ادراك كنهه إطلاقاً. لو كنت جراحاً كبيراً، وجاءني رجل لم يسبق له ان تناول مبضعاً قط، لاهوطيب، ولن يجبر قائمة هراًبداً، ليبين أخطائي في عملية جراحية فماذا عساكم تتصورون...؟ يحدث الأمر ذاته في فن الرسم. والغريب ان الناس لا يلاحظون ذلك. فعلى الرغم من انهم يهزأون من ادعاءات ناقد الجراحة هذا، تراهم يصفون باحترام بالغ إلى أولئك الثنارين. لعل الاصغاء بشيء من الاحترام إلى ناقد مارس فن الرسم ذات مرة ممكن، حتى وان كانت لوحاته عادية - بالرغم من ان ذلك سيكون في غاية السخف - ولكن، هل يعقل ان يقوم رسام عادي باسداء النصيح إلى رسام ماهر؟!

لقد طوح بي بعيداً عن سبيلي ، شغفني اللعين في تبرير كل عمل أقوم به .
لماذا بحق الشيطان ، يتعين علي ان اشرح اسباب عدم ارتياد معارض الرسم ؟ يبدو
لي ان لكل انسان الحق في ان يفعل ما يحلوه سواء تردد عليها ، او لم يتردد ، ولا
يحتاج إلى الاسهاب في تقديم الحجج والمبررات . إلى أي مدى سيبقى هذا
الهاجس مسيطراً علي ؟ لكن ما حصل قد حصل ، وان كان لا يزال لدي الكثير مما
أقول حول مسألة المعارض تلك ، كثرثرات زملاء ، وعمى الجمهور ، وحماسة
المسؤولين عن تحضير القاعة وتوزيع اللوحات . . . ولحسن الطالع (أولسوئه) ،
سيان ، فإن ذلك لم يعد يهمني ، ولعلي اكتب - في يوم ما - بحثاً طويلاً عن الطريقة
التي يجب على الرسام أن يدافع بها عن نفسه ، أمام أصدقاء فن الرسم .

كان يتعين علي إذن ان استبعد امكانية العثور عليها في احد المعارض .
وقد يحدث مصادفة ان يكون لها صديق ، هو صديقي في الوقت ذاته ، في
مثل هذه الحالة يكفي مجرد تقديم احداً للآخر . ارتيمت في احضان هذا الاحتمال
مبتهجاً ، يبهرنني نور الخجل المقيت . مجرد تقديم بسيط ! . . كم اصبحت الامر
سهلاً . . ! وكم هو جميل . . ! . لقد حال الانبهار دون أن أرى سخافة فكرة كهذه .
لم افكر في تلك اللحظة أن العثور على صديق لها عسير وصعب ، كصعوبة العثور
عليها بالذات : إذ من الواضح انه يستحيل العثور على صديق لها من دون معرفة
من تكون . ولكن ، ان كنت اعرف من تكون ، فلماذا اللجوء إلى شخص
آخر . . ؟ . يبقى إذن الامل الضئيل في تقديم احداً للآخر ، وهو امر لم استخف
به . وان كان من الواضح ان المشكلة الاساسية ، كانت مسألة العثور عليها ،
والبحث فيما بعد عن صديق مشترك ليقوم بتقديم احداً للآخر .

ويبقى السبيل المعاكس . أي البحث عما إذا كان أحد اصدقائي ، هو
صديق لها مصادفة . وهذا يمكن القيام به من دون ان احتاج إلى العثور عليها
أولاً ، فقد يكفي ان أسأل معارفي فرداً فرداً عن فتاة قوامها كذا . . وشعرها

كذا . . لكن بدا لي ذلك ضرباً من الرعونة ، فعزفت عنه ، وقد اخجلني مجرد تصوري أنني اطرح اسئلة من هذا القبيل على أناس من امثال مايبيلي ولا تريغ .

اعتقد انه من المناسب ان اؤكد اني لم اصرف النظر عن مختلف هذه الاحتمالات بدافع من جنون . قمت بذلك للأسباب التي فرغت من عرضها وحسب . يمكن للبعض ان يعتقد انه لمن الجنون فعلاً تصور هذا الاحتمال البعيد ، أي ان يكون احد معارفي صديقاً لها في الوقت ذاته . قد يترأى ذلك لانسان سطحي ، ولكن ليس لمن اعتاد تأمل العضلات الانسانية ، توجد في المجتمع شرائح أفقية قوامها اشخاص ذوو اذواق متماثلة ، واللقاءات العرضية (؟) في أوساطها ليست نادرة ، وبصورة خاصة عندما تكون بعض صفات الأقليات سبباً في تكون تلك الشرائح . حدث أن عثرت على شخص في أحد احياء برلين ، ومن ثم صادفته في ركن صغير يكاد يكون مجهولاً في ايطاليا وأخيراً ، التقيته في إحدى مكتبات بوينس آيرس . فهل من المعقول ان نعزو هذه اللقاءات المتكررة إلى الصدفة . . ؟ . لكن أقول شيئاً مبتدلاً لا يدركه أي شخص من هواة الموسيقى ولغة الاسبرانتو وتحضير الأرواح .

إذن لا بد من الاستسلام باستحياء شديد لامكانية اللقاء في الشارع . يا للشياطين بعض أولئك الرجال ، كيف يقومون باعتراض امرأة لمبادلتها الحديث ، وحتى للقيام بمغامرة معها؟ لقد صرفت النظر نهائياً عن أي تفكير ينطلق من أن أقوم بالمبادرة ذلك أن جهلي بهذا الاسلوب السوقي ، وسحتني ، دفعاني إلى اتخاذ هذا القرار النهائي الكئيب .

ولم يتبق أمامي سوى انتظار فرصة سعيدة من تلك التي تسنح مرة من بين ملايين المرات وهي : ان تتكلم هي معي أولاً ، وذلك مما جعل سعادتي معلقة على ورقة يانصيب ذات حظ ضئيل في الربح ، كأن يترتب ان تفوز في سحب أول ، كي تنال حق الاشتراك في سحب ثان ، ولا تربح الجائزة إلا إذا فازت في السحب الثاني . كان لا بد فعلاً من أن تسنح فرصة اللقاء بها ، ومن ثم فرصة

اخرى أبعد احتمالاً وهي ان تبادرني الكلام . شعرت بالدوار والحزن واليأس ، ومع ذلك مضيت في الاعداد لموقفي .

وتصورت أنها كانت تتحدث معي لتسألني عن عنوان ، أو عن موقف حافلة مثلاً . وانطلاقاً من العبارة الاولى هذه كونت - طيلة اشهر من التأمل والكتابة والغضب والاهمال والامل - سلسلة لا نهاية لها من التصورات المتنوعة . كنت في بعضها ثرثاراً متبذلاً (في الواقع ، لست كذلك أبداً) . وكنت في بعضها زاهداً ، وفي بعضها الآخر كنت اتصور نفسي فرحاً . ما هوي منتهى الغرابة ، انني كنت أجيب أحياناً ، بفظاظة وحتى بغیظ مكظوم ، على سؤال تطرحه ، وحدث (في تلك اللقاءات التي كانت تتم في الخيال المحض) ان أحبط اللقاء ما كان ينتابني من غضب سخيـف ناجم عما كنت أوجهه إليها من لوم فظ اثر استشارة ما تبدر عنها كنت أعتبرها عقيمة أو هوجاء . كانت هذه اللقاءات الفاشلة تخلف في نفسي مرارة عميقة ، وكنت خلال ايام متعددة الوم بلاهتي التي كانت تؤدي بي إلى اضاعـة فرصة نادرة لاقامة علاقات معها ، ولحسن الطالع ، كان الأمر ينتهي بي إلى أن أدرك ان كل ذلك لم يكن سوى ضرب من الخيال ، وأن الفرصة الحقيقية - على الأقل - ما زالت باقية ولذا كنت أعود إلى التأهب بمزيد من الحماس ، وإلى تصور محاورات سوقية جديدة اكثر جدوى . كانت الصعوبة الكبرى تكمن - بصورة عامة - في ربط سؤالها بامر بالغ الشمول ، وبعيد عن الهموم اليومية كالماهية العامة للفن ، او الانطبـاع الذي خلفته نافذتي لديها وبالطبع من الممكن دوماً - لو توفر الوقت والهدوء - إقامة هذا النوع من الربط بصورة منطقية وبدون قسر ، ففي مناسبة اجتماعية مثلاً ، يفيض من الوقت ما يكفي لاقامة صلات من هذا الطراز بين موضوعات متنوعة لا رابط بينها ، وانما ، في شارع عام مزدحم من شوارع بوينس ايرس ، حيث يترامض الناس افواجاً يدفع بعضها البعض الآخر ، يجب صرف النظر عن هذا النوع من الحديث . ولكن لم يكن بوسعي صرف النظر عنه من دون أن أقع في موقف لا خلاص لي منه . لذا عدت اتخيل محاورات علي جانب أكبر من الفاعلية والفتنة ، بدءاً من عبارة : أين يقع مركز البريد؟ وانتهاءً بمناقشة

بعض معضلات التعبيرية والواقعية. ولم يكن ذلك بالأمر السهل أبداً. في ليلة مؤرقة توصلت إلى نتيجة مفادها ان محاولة الشروع في محادثة كهذه امر مصطنع ولا فائدة منه، وانه من الأفضل اقتحام النقطة المركزية فجأة بسؤال جريء، والمراهنة بكل شيء على رقم واحد، فقط، كأن اسأل مثلاً: لماذا نظرت إلى النافذة وحسب؟ لقد الفت ان يكون تصميمي في الليالي المؤرقة اشد مضاء منه عندما يحل النهار. وفي اليوم التالي، عندما فكرت في تلك الامكانية بهدوء انتهيت إلى انني قد لا امتلك الجرأة لأباغتها بهذا السؤال الصريح ابداً. وكما يحدث دوماً، فقد دفع بي الاحباط إلى الموقف النقيض، فتصورت سؤالاً غير مباشر - كأن اسألها مثلاً: هل تهتمين بالفن...؟ بيد ان النقطة التي اود الوصول إليها عبر هذا السؤال (النافذة)، تتطلب بادئ ذي بدء ان تربطني بها صداقة متينة كي اتمكن من توجيهه.

لا اذكر الآن جميع التصورات المتعددة التي راودتني، انما اذكر ان بعضها كان معقداً لدرجة تجعله عديم الفائدة عملياً. إذ ستكون صدفة عجيبة جداً ان يصنع مقدماً مفتاح بالغ التعقيد، ليتطابق مع قفل يجهل صانع المفتاح شكله. عندما كنت اتفحص التصورات الكثيرة المعقدة، كنت انسى ترتيب الاسئلة والاجوبة، أو امزجها، كمن يحفظ عن ظهر قلب العاباً على لوحة شطرنج. وكان يحدث احياناً كثيرة أن أحل عبارة من تصور ما، مكان عبارة من تصور آخر، مما كان يؤدي إلى نتائج مثيرة للضحك أو مشبطة للهمة، كأن اعترضها لاعطيها عنواناً أو ابادرها السؤال: هل تهتمين جداً بالفن...؟ كان ذلك مضحكاً حقاً. عندما كنت أصل إلى هذه الحالة، كنت ارتاح بضعة أيام من عبء خلط تلك التراكيب والتصورات.

حين رأيته تسير على الرصيف المقابل ، تراكت جميع التصورات المختلفة واختلطت في رأسي . شعرت ان عبارات كاملة ، من تلك التي تمت صياغتها ودراستها خلال تدريبات الاعداد الطويلة ، كانت تنبثق في وعيي مشوشة : هل تهتمين كثيراً بالفن ؟ لماذا نظرت إلى النافذة ؟ . . وبإصرار بالغ لا مثيل له ، انبثقت عبارة ، كنت قد نبذتها لسماحتها ، وراحت - في تلك اللحظة - تغمرني بالحنج وتشعري بالتفاهة :

- هل يعجبك كاستيل ؟

ظلت العبارات ، منفردة ومختلطة ، تشكل لغزاً صاخباً دائم الحركة ، إلى أن أدركت ألا جدوى من استمرار القلق : تذكرت انه يتعين عليها هي ان تبادرني الكلام ، ومنذ تلك اللحظة شعرت بغباء ان الارتياح يغمرني ، واعتقد ان الأمر قد وصل بي إلى أن افكر بغباء ايضاً : « هيا بنا نرى كيف ستتدبر الأمر الآن . . . » . ورغم ذلك ، كنت اشعر بقلق وانفعال شديدين ، يدفعاني لمتابعة خطواتها على الرصيف المقابل ، من دون ان أعني انه كان من الأولى بي أن اعبر الشارع إلى الرصيف الآخر ، وادنومنها بحيث اتيح لها فرصة مؤاتية للسؤال عن عنوان ما ، هذا إذا كنت افترض انه يتعين عليها هي ان تبادرني الكلام ، وإلا فهل يوجد ما هو ادعى للسخرية فعلاً من أن اتخيلها تصيح من بعيد لتسألني عن عنوان ما . ماذا يجب علي أن افعل . . . ؟ . . . إلى متى سيستمر هذا الوضع . . . ؟ شعرت بتعاسة لا حدود لها . مشينا بضع مئات من الأمتار ، وتابعت سيرها بتصميم .

كنت حزيناً جداً لكن كان يتعين علي أن أمضي حتى النهاية ، فلم يكن باستطاعتي ان ادع الفرصة تضيع بعد انتظار طويل استمر اشهرأ . وبينما كنت اغذ السير مسرعاً وروحي تترنح بشدة ، احسست بشعور فريد من نوعه : حسبت ان عقلي حشرة عمياء بلهاء وسط سيارة تنطلق بها بسرعة هائلة .

انعطفت في زاوية شارع سان مارتين، وسارت بضع خطوات، ثم دخلت إلى مبنى شركة (ت). وادركت انه يترتب علي أن احزم امري بسرعة، فتبعتها رغم شعوري - في تلك اللحظات - بأنني أقوم بعمل طائش وفظيع. كانت تنتظر المصعد، لم يكن هناك غيرها. لكن أحداً أكثر مني جرأة نطق من أعماق داخلي بهذا السؤال الارعن اللا معقول:

- هل هذا مبنى شركة (ت)؟

كانت هناك لافتة تغطي كامل الواجهة على طول بضعة امتار، تدل على ان المبنى يعود إلى شركة (ت) فعلاً.

ومع ذلك، استدارت ببساطة، وردت بإيجاب. (فيما بعد، فكرت بسؤالي وببساطة وهدوء جوابها، فتوصلت إلى انه يحدث مراراً ألا يرى المرء لافتات مهما كانت كبيرة، ولذا فإن السؤال لم يكن سخيفاً للغاية، كما كنت اتصور للوهلة الأولى).

ولكنها ما أن رأني حتى اعترى وجهها احمرار شديد، فأدركت عندئذ أنها عرفتني. لم اكن قد تخيلت مثل هذا الموقف من قبل اطلاقاً، لكنني وجدت انه منطقي جداً، ذلك ان صورتي كانت قد ظهرت في مجلات وصحف مرات عديدة.

ومن شدة انفعالي اندفعت لأوجه سؤالاً بائساً آخر فقلت فجأة:

- لماذا اعترى وجهك الاحمرار...؟

ازداد وجهها تضرجاً، وربما كانت على وشك ان تجيب عندما اردفتُ بتهور أقول بعد ان فقدت القدرة على التحكم بنفسي تماماً:

- لقد تضرج وجهك لأنك عرفت من أنا، وتعتقدين ان هذا ما هو إلا محض صدفة، لكنه ليس صدفة، ليست هناك صدفة اطلاقاً، لقد فكرت فيك طيلة شهور عديدة واليوم، عثرت عليك في الشارع، وتبعت خطاك. لدي امر هام أريد أن أسأل عنه، أمر يتعلق بالنافذة هل تفهمين؟

أصابها الذعر، وتلعثمت وهي تتمتم:

- النافذة . . . ؟ . . . اية نافذة . . . ؟

واحست برجلي تتداعيان . امن الممكن ألا تتذكرها . . . ؟ لم تكن تعيرها
أي اهتمام إذن ، كانت تنظر إليها بفضول محض . شعرت بتفاهتي ، وفكرت بينما
يلفني الدوار ، ان كل ما كنت اتخيل وافعل خلال تلك الشهور (بما في ذلك هذا
الموقف) ، كان في منتهى الطيش والتفاهة ، وليس سوى بناء خيالي ابتدعته
تصوراتي المعهودة بغطرسة تشبه تلك المحاولات التي تبذل لاعادة ترميم
ديناصور ، بدءاً من فقرة عظمية محطمة ، واحدة فقط .

كادت دموع الفتاة تنهمر . وحسبت ان العالم يتداعى من حولي ، وفقدت
القدرة على التصرف بهدوء وفعالية . ووجدتني أقول أشياء أخجل من كتابتها
الآن .

- أرى انني اخطأت . طاب مساؤك .

وخرجت مسرعاً اسير على غير هدى ، كنت قد قطعت حوالي مئة متر
عندما سمعت صوتاً من ورائي ينادي :

- يا سيد . . يا سيد . .

كانت تتبعني من دون ان تجرؤ على اعتراضي ، كانت تقف هنالك لا
تدري كيف تبرر ما حدث . قالت بصوت خافت :

- اعذرني يا سيدي . . اعذر غبائي . . لقد كنت في غاية الذعر .

كان العالم قد تحول منذ لحظات إلى فوضى من الأشياء والمخلوقات التافهة
وشعرت انه عاد يتشكل ويتنظم من جديد . رحت اصغي إليها بصمت عندما
استأنفت تقول وهي ترتجف :

- لم ادرك انك كنت تسأل عن منظر اللوحة

امسكت بذراعها بلا وعي ، وقلت :

- تتذكرينها إذن . . . ؟

ظلت صامته برهة وهي تطرق إلى الأرض ، ثم قالت ببطء :

- انني اتذكرها باستمرار .

حدث بعد ذلك أمر غريب . بدت كما لو/أنها ندمت على ما قالته ، فاستدارت فجأة ، واندفعت راکضة . وما ان وعيتُ المفاجأة ، حتى وجدتني أعدو خلفها ، لكنني سرعان ما ادركت سخافة هذا المشهد ، فتلفتت إلى جميع الاتجاهات ، ثم تابعت السير بصورة طبيعية انما بخطى حثيثة . قمت بذلك لسببين اولهما لأنني وجدت أنه من المضحك حقاً ، ان يركض رجل معروف مثلي وراء فتاة في الشارع ، وثانيهما وهو الأهم لأنه لم تكن هناك ضرورة لذلك ، فقد كان باستطاعتي ان أراها في أي وقت ، عند دخولها المكتب أو خروجها منه . فلماذا الجري وراءها كالمجنون اذن . . . ؟

والهم . ما هو مهم حقاً ، أنها كانت تتذكر منظر النافذة : « كانت تتذكره باستمرار » كنت سعيداً ، ووجدتني اهلاً للقيام بأعمال عظيمة ، انما انحيت باللائمة على نفسي لارتبائي أمام المصعد ، ومن ثم لأنني جريت وراءها كالمجنون ، في حين كان بوسعي أن أراها في المكتب في أي وقت .

« في المكتب . . ؟ » . . تساءلت فجأة بصوت مرتفع يقارب الصياح ، بينما شعرت ان رجلي تتداعيان من جديد . من قال انها تعمل في ذلك المكتب . . ؟ . .
ألا يدخل المكاتب إلا الذين يعملون فيها فقط . . ؟ . . كانت فكرة ضياعها لعدة أشهر أخرى أوروبها إلى الأبد تسبب لي الدوار ، فاندفعت اسير بلا وعي ، كمن فقد الأمل ، وسرعان ما وجدتني امام مدخل شركة (ت) . لكنني لم اعثر لها على اثر . اتراها صعدت . . ؟ فكرت ان اسأل عامل المصعد ، ولكن . . كيف اسأله ؟ ، من المحتمل ان فتيات كثيرات صعدن ، وقد يترتب علي ذكر بعض التفاصيل . ماذا سيظن عامل المصعد ؟ مشيت على الرصيف حائراً هنيهة ثم عبرت الشارع إلى الرصيف المقابل ، ورحت اتفحص واجهة المبنى من دون أن ادرك السبب . أكان ذلك بدافع من أمل مبهم في أن ارى الفتاة تطل من إحدى النوافذ . . ؟ . . ولكن ليس من المعقول ان أفكر بأنها سوف تطل لتوميء إلي ، أو لتقوم بشيء من هذا القبيل . لم ارسوئى اللافتة الضخمة تقول :

شركة (ت)

قدرت بالنظر أنها تغطي حوالي عشرين متراً من واجهة المبنى ، فزادتني هذه العملية الحسابية احساساً بالغم . ليس لدي الكثير من الوقت الآن لاستسلم لهذا الاحساس ، فيما بعد سوف استسلم للعذاب بهدوء . ولم أجد امامي ، في تلك اللحظة ، سوى ان ادخل المبنى ، فتسللت اليه بعزم ، وانتظرت هبوط المصعد . غير أني لاحظت انه بقدر ما كان يقترب ، كان تصميمي يتضاءل ، وخجلي يتنامى ، واضطرابي يشتد ، وما ان فتح الباب حتى وجدتني مصمماً على ألا أتفوه بأية كلمة . وإذا كان الأمر كذلك ، فلماذا استقل المصعد اذن ؟ كان يصعب ألا أقوم بذلك بعد انتظار طويل على مرأى من اناس آخرين . كيف يمكن ان يؤولوا تصرفاً كهذا . . ؟ لم أجد حلاً سوى أن ادخل مع الداخلين محافظاً بالطبع على قراري بالآأأتفوه بأية كلمة ، وهذا امر ميسور تماماً ، بل وعادي أيضاً ، إذ من

المفترض ألا يلزم احد بان يتحدث داخل المصعد، وإذا كان المرء صديقاً للنادل، فمن الطبيعي في هذه الحالة أن يسأله عن الطقس، او عن حالة ابنه المريض. ولكن بما انه ليس لي أية علاقة مع هذا الرجل ولم يسبق لي أن رأيته، حتى هذه اللحظة، فلن ينجم عن تصميمي على الصمت أية تعقيدات، كما أن وجود عدة أشخاص داخل المصعد كان يسهل علي ان اتصرف بلا أي حذر.

دخلت المصعد بهدوء، وسارت الأمور على ما يرام كما كنت أتوقع، تحدث احدهم مع النادل عن الحر الشديد المشيع بالرطوبة، مما زادني انشراحاً، واكد صحة تصوراتي، عانيت من اضطراب طفيف عندما قلت: «الطابق الثامن». لا يمكن لأحد أن يكون قد لاحظ ذلك، إلا إذا كان على بينة من الغاية التي كنت أسعى اليها في تلك اللحظة.

عندما وصلت إلى الطابق الثامن، رأيت شخصاً آخر يخرج معي، مما عقد الوضع قليلاً فشرعت اسير ببطء، منتظراً دخوله إلى احد المكاتب، بينما كنت أتمشى على طول الممر عندما دخل تنفست الصعداء، وتجولت قليلاً حتى بلغت اقصى الممر، والقيت نظرة على مشهد بوينس ايرس من احد النوافذ، ثم عدت ادراجي لاستدعي المصعد. بعد قليل وجدت نفسي عند باب المبنى من دون ان يحدث أي امر مقلق مما كنت اتوقع (اسئلة غريبة من عامل المصعد مثلاً . . .). تناولت لفافة، وما ان اشعلتها، حتى ادركت ان اطمئناني كان امراً في منتهى السخافة، صحيح انه لم يحدث اي امر مكدر، لكن الصحيح أيضاً أنه لم يحدث أي شيء على الاطلاق، وبعبارة اخرى اكثر صراحة: ان لم تكن الفتاة مستخدمة في تلك المكاتب، فلا بد انني ضيعتها، فإذا كانت قد دخلت لتقوم بمهمة بسيطة، فمن الممكن ان تكون قد صعدت، ثم نزلت من دون ان التقي بها، «وفكرت طبعاً انها إذا كانت قد دخلت من أجل المهمة فمن الممكن أيضاً ألا تكون قد انجزتها في وقت قصير كهذا». وشجعني هذا الخاطر من جديد، فقررت الانتظار امام امام المبنى.

لبثت ساعة انتظر بلا جدوى، ورحت ادرس شتى الاحتمالات الممكنة:

- ١ - إذا كانت المهمة تستغرق وقتاً طويلاً، ففي هذه الحالة، ينبغي علي أن استمر في الانتظار.
- ٢ - إذا كانت مضطربة جداً بعد الذي حدث، وذهبت للقيام بجولة قبل أن تقوم بالمهمة. فيرتب علي الانتظار أيضاً.
- ٣ - لعلها تعمل هناك، وفي هذه الحالة ينبغي علي أن انتظر حتى ساعة خروجها.

فالانتظار إذن يتفق مع الاحتمالات الثلاثة .

بدا لي أن هذا المنطق متماسك جداً، وأثار في طمأنينة قررت معها، بشكل جدي وهادئ، أن انتظر في المقهى في زاوية الشارع، حيث كان باستطاعتي مراقبة خروج الناس من المبنى . طلبت كأساً من الجعة، كانت الساعة حينذاك تشير إلى الثالثة والرابع .

وبقدر ما كان الزمن يمضي، كان يتأكد لديّ الافتراض الأخير بأنها تعمل هناك . وعند الساعة السادسة بدا لي أنه من الأفضل أن انتظر امام المبنى، إذ من المؤكد أن الكثيرين سيخرجون دفعة واحدة، وقد لا أتمكن من رؤيتها لوبقيت في المقهى . فنهضت .

بعد الساعة السادسة بدقائق، بدأ الموظفون بالانصراف . وعند الساعة السادسة والنصف، كان أكثرهم قد انصرف، وبدأ عددهم يتضاءل شيئاً فشيئاً . وما أن بلغت الساعة السابعة إلا ربعاً حتى لم يكدر يخرج أحد سوى بعض كبار الموظفين . وفكرت، لعلها هي الأخرى من كبار الموظفين (مستحيل) . أو سكرتيرة أحد كبار الموظفين، «هذا ممكن» وراح هذا الخاطر يبعث في أُملاً ضئيلاً .

عندما كانت الساعة تشير إلى السابعة، كان كل شيء قد انتهى .

بينما كنت عائداً إلى منزلي يملكني احباط عميق، حاولت ان أفكر بوضوح. رأسي مرجل يغلي، لكن عندما تتوتر أعصابي، تتوارد الأفكار في ذهني بحركات دورانية. كرقصة بالية، ورغم ذلك، أوريا بسبب ذلك بالذات، اعتدت على التحكم بأفكاري بصرامة وعلى ترتيبها بدقة، واعتقد أنه لو لم يكن الأمر كذلك، لكنت قد اصببت بالجنون منذ زمن بعيد.

عدت إلى المنزل - كما قلت - وأنا في حالة احباط عميق، غير اني لم اتخل - رغم ذلك - عن ترتيب وتنسيق أفكاري، فقد شعرت بالحاجة إلى التفكير بوضوح، وإلا فقدت إلى الأبد، الشخص الوحيد الذي كان - بكل تأكيد - يفهم لوحتي.

فهي إما أن تكون قد دخلت المكتب لتقوم بمهمة ما، أو لأنها كانت تعمل هناك. ولم يكن ثمة احتمال آخر. وهذا الافتراض الأخير هو الاوفر حظاً. وإذا كان الأمر كذلك، فلعلها، عندما تركتني وولت هاربة احست بالقلق، فقررت العودة إلى منزلها، وكان من الضروري إذن أن أنتظرها في اليوم التالي أمام مدخل المبنى.

درست فيما بعد، الاحتمال الآخر وهو قيامها بالمهمة، فقد يكون ما حدث فعلاً هو أنها انزعجت من اللقاء، فعادت إلى منزلها، وقررت تأجيل المهمة إلى اليوم التالي، وفي هذه الحالة يترتب علي ان أنتظرها امام مدخل المبنى ايضاً. كان هذان الاحتمالان مواتيين، ولكن خطري احتمال آخر أثار في الرعب فعلاً وهو ان تكون قد انجزت مهمتها حينما وصلت إلى المبنى، وانصرفت خلال مغامرتي في المصعد، صعوداً وهبوطاً، من دون أن يلتقي احداً الآخر، لكن الوقت الذي استغرقه كل ذلك كان قصيراً، وقد لا تكون الأمور قد جرت على هذا النسق، انما يمكن ان تكون قد حدثت هكذا، إذ قد تكون المهمة المعهودة

تسليم رسالة مثلاً . ورأيت والحالة هذه ألا جدوى من العودة لانتظارها في اليوم التالي .

ومع ذلك كان قد تبقى لي الاحتمالان المواتيان ، فرحت اتشبث بهما تشبث اليأس .

وصلت إلى منزلي تتنازعني مشاعر شتى . فكلما كنت أفكر بتلك العبارة التي قالتها لي « اتذكرها باستمرار » كان قلبي يخفق بعنف ، واحس أن فرصة مبهمة ، لكنها هائلة ورحبة قد فتحت امامي ، وأشعر أن قوة عظيمة كانت ما تزال كامنة فيّ حتى تلك اللحظة ، سوف تنطلق . وكنت أتصور انه قد يمضي زمن طويل قبل ان اعثر على الفتاة ، لكن كان لا بد لي من أن أعثر عليها . ووجدتني اردد بصوت عال :

« لا بد لي . . . لا بد لي ! » .

في ساعة مبكرة، من صباح اليوم التالي، كنت أقف امام مدخل مكاتب شركة (ت). دخل الموظفون جميعاً، لكنها لم تظهر. كان من الواضح إذن، انها لا تعمل هناك وان تبقى افتراض واه بأن تكون قد اصببت بمرض يستدعي غيابها عن المكتب عدة أيام.

كما تبقى أيضاً، احتمال آخر هو احتمال المهمة، الذي جعلني اقرر الانتظار طيلة الصباح في المقهى.

كانت الساعة تقارب الحادية عشرة والنصف حين رأيتها تخرج من باب محطة المترو وبعد ان كنت قد فقدت الامل نهائياً فانتابني هيجان مريع وأنا اندفع للقاءها، وما ان رأيتني حتى تسمرت في مكانها كتمثال من حجر. من الواضح أنها لم تكن تحسب لمثل هذا اللقاء حساباً. والغريب، ان مجرد شعوري بان عقلي يعمل بدقة صارمة، كان يمدني بطاقة خارقة: كنت اشعر بالقوة، واحس بان مسا من تصميم رجولي يملكني، وأن لديّ استعداداً مطلقاً للقيام بأي عمل، فأمسكت بذراعها بقسوة من دون أن أنبث ببنت شفة. وسحبتهما عبر شارع سان مارتين باتجاه الحديقة. بدت فاقدة الارادة، ولم تنطق بأية كلمة.

كنا قد قطعنا حوالي مئتي متر عندما سألتني:

- إلى أين تأخذني...؟

فاجبتها بينما أتابع السير بتصميم، وأنا لا أزال أجرها من ذراعها:

- إلى حديقة «سان مارتين». لديّ أمور كثيرة لأتحدث وإياك.

تمت بكلمات ذات صلة بشركة (ت)، لكنني تابعت طريقي وأنا أجرها

من دون ان أعي شيئاً مما تقول. ثم اردفت:

- يجب أن أتحدث وإياك بأمور كثيرة.

لم تبد أية مقاومة. كنت أحس كأنني نهر عرم يحرف امامه غصناً. وصلت

إلى الحديقة وبحثت عن مقعد منعزل وبادرتها السؤال :

- لماذا هربت . . . ؟

رمقتني بنظرة تنم عن ما لاحظته في عينيها قبل يوم مضى ، حينما قالت لي :
«أتذكرها باستمرار» كانت نظرة غريبة ، ثابتة ، خارقة ، بدت لي آتية من الماضي ،
كانت تذكرني بشيء ما ، بعينين شبيهتين ، ولكن لم يكن في وسعي أن أتذكر أين
رأيتها . ثم قالت :

لا أعرف ، واود أن اهرب الآن أيضاً .

قلت وأنا اضغط على ذراعها :

- عديني بأنك لن تختفي ثانية ، احتاج اليك كثيراً . أنا في أمس الحاجة

اليك .

عادت ترمقني بنظرها المتفحصة من دون ان تقول شيئاً ، ثم راحت تصوب
عينها على شجرة بعيدة .

لم يكن شكلها يذكرني بشيء . كان محياها رائعاً لكنه ينم عن بعض
القسوة ، وكان شعرها طويلاً كستنائياً ، ومظهرها الخارجي لا يدل على أنها تتجاوز
السادسة والعشرين من العمر ، إلا أن شيئاً ما كان يوحي بأنها أكبر عمراً ، شيئاً ما
اصيلاً في شخص عاش طويلاً ، لا هو المشيب ، ولا أي من تلك الدلائل المادية
الخالصة ، وإنما شيء ما مبهم ومن طبيعة روحية حتماً ، لعله النظرة . . ولكن إلى
أي حد يمكن القول ان نظرة مخلوق بشري هي شيء مادي . . ؟ بل لعله شكل
اطباقة الفم ! نعم ، ولكن ، رغم ان الفم والشفيتين هما من العناصر المادية ، إلا أن
اسلوب اطباقتها ، وبعض التجميعات هي أيضاً من العناصر الروحية . لم أتمكن
من ان احدد في تلك اللحظة ماذا كان بالضبط ذلك الشيء الذي أوحى إلي بتلك
الصورة عن عمرها كما انني لا استطيع ان احدد الآن . اظنه طريقة حديثها ايضاً ،
ورحت اردد :

- انني في أمس الحاجة اليك .

لم تجب، وظلت تنظر إلى الشجرة البعيدة، فسألتها:
- لماذا لا تتكلمين:

فاجبت من دون ان تحول نظرتها عن الشجرة:
- من أكون انا...؟... انت فنان كبير ولا أدري كيف يمكن أن تكون
بحاجة إلي.

فصرخت في وجهها بقسوة:
- قلت لك إنني احتاج اليك، ألا تفهمين؟
تمتت وهي لا تزال تنظر إلى الشجرة:
- لماذا؟

لم اجبها على الفور، تركت ذراعها، واستغرقت في التفكير: فعلاً... لماذا؟
حتى تلك اللحظة لم أفكر في هذا السؤال بصراحة، انما كنت غالباً، مستسلماً
لدوافع غريزية. وبدأت أرسم اشكالا هندسية على الأرض بغصن صغير.

بعد برهة ليست بقصيرة، تمتت:

- لا أعرف... حتى الآن لا أعرف.

كنت مستغرقة في التفكير والغصن في يدي، وبينما راحت الرسوم الهندسية
التي اخطتها على الأرض تزداد تعقيداً، اخذت اردد:

- رأسي متاهة مظلمة يضيء بعض ممراتها ما يشبه وميض البرق احياناً. لن
اتوصل إلى ادراك سبب قيامي ببعض التصرفات أبداً... لا... انه ليس
كذلك.

شعرت بغبائي الشديد، لم يكن ذلك من شيمي إطلاقاً. بذلت جهداً
كبيراً وأنا أفكر، لعلي لست عاقلاً...؟... لا أبداً، كان تفكيري يعمل كآلة
حاسبة باستمرار ففي هذه القصة مثلاً: الم اكن قد امضيت شهوراً وأنا أفكر
واخلط الافتراضات وانسقتها...؟ وبصورة ما الم اعثر- في نهاية الامر- على ماريّا
بفضل قدراتي المنطقية...؟ شعرت أنني قريب من الحقيقة. قريب جداً

وخشيت ان افقدها، لقد قمت بجهد هائل حقاً. وصحت :

- ليس الأمر هو أنني لا أحسن التفكير . . . ! بل على العكس من ذلك تماماً. إنني أجيد التفكير دوماً، ولكن، تصوري قبطاناً يقوم في كل لحظة بعملية حسابية لتحديد موقعه ويتابع طريقه نحو الهدف بعزيمة لا تلين، إلا أنه لا يعرف لماذا يتجه نحو ذاك الهدف، أفهمين؟

تأملتي بحيرة للحظة، ثم عادت تنظر إلى الشجرة من جديد. فاردفت قائلاً :

- أشعر أنك ستكونين عنصراً جوهرياً في ما يتوجب علي أن أقوم به، وان كنت - حتى الآن - لا أدرك لذلك سبباً.
وعدت ارسم بالغصن، وأنا ابذل جهداً عقلياً كبيراً، ثم اضفت بعد فترة صمت :

- أول ما يتبادر إلى أن الأمر يتعلق بمنظر النافذة : لقد كنت أنت الإنسانية الوحيدة التي أهتمت به.

فتمتت :

- أنا لست ناقدة فن . . . !

صحت ساخطاً :

- لا تحدثيني عن أولئك البلهاء .

استدارت وعلائم الدهشة على وجهها، فرحت اشرح لها بصوت خافت، الاسباب التي تدعوني ألا اثق بناقدي الفن، ونظرية المشرط. وما الى ذلك. كانت تصغي إلي وهي تنظر إلى البعيد باستمرار. وعندما فرغت، قالت :

- انك تتذمر، لكن النقد يمتدحونك دائماً.

فقلت حانقاً :

- لكن ذلك اسوأ بالنسبة لي . . . ألا تدركين . . ؟ وهو من الأمور التي تنغصني وتجعلني احس بأنني لا أسير في الطريق الصحيح. فكّري بما جرى في تلك القاعة

مثلاً . لم ينتبه احد من أولئك الثنائين إلى أهمية ذاك المنظر . شخص واحد فقط اهتم به ، وهو أنت ، ولو أنك لست ناقدة فن . . . لا . . . هناك شخص آخر اهتم به أيضاً ، ولكن بصورة سلبية ، فقد أنحى باللائمة عليّ ، وكان مشمئزاً إلى درجة الغثيان ، بينما أنت .

قالت بتؤدة وهي لا تزال تنظر إلى البعيد :
- اولى من الممكن أن أكون قد كونت الرأي ذاته ؟

- أي رأي . . . ؟

- رأى ذلك الشخص .

نظرت إليها بقلق ، لكن منظر وجهها الجانبي ، بفكيها المطبقين ، لم يكن ينم عن شيء ، فقلت بحزم :
- انك تفكرين كما أفكر .
- وبماذا تفكر . . ؟

- لا أدري ولا أستطيع الإجابة على هذا السؤال ، وبالأحرى ، يمكنني أن أقول إنك تشعرين كما أشعر . . كنت تتأملين ذاك المنظر ، كما لو أنني أنا مكانك أتأمله لا أدري بماذا تفكرين ، كما لا أدري بماذا أفكر انا أيضاً ، لكنني أعلم أنك تفكرين كما أفكر .

- لكن ، ألا تتصور لوحاتك وتفكر فيها قبل أن ترسمها ؟

- من قبل ، كنت أفكر فيها كثيراً ، وابنيها كما يُبنى المنزل ، لكن هذا المنظر استثناء ، فقد احسست انه يتعين علي ان ارسمه هكذا من دون ان اعرف لماذا ولا زلت لا أعرف ، فليست له في الواقع ، أية علاقة ببقية اللوحة ، واطن ان احد اولئك الأغبياء نهني اليه . انني اشعر بالضيق ، واحتاج إلى مساعدتك ، لأنني أعلم انك تشعرين كما أشعر .

- لا أدري تماماً بماذا تفكر .

كاد صبري ينفد ، فاجبتها بجفاء :

- ألم أقل لك إنني لا أعرف بماذا أفكر؟ لو أني أستطيع أن أعبر بكلمات واضحة عما أشعر به، لكان أحرى بي أن أفكر بوضوح. أليس كذلك؟
- أجل انه كذلك حقاً.

صمتت برهة، وفكرت وأنا أحاول أن أرى بوضوح، ثم اضفت:
- يمكنني أن أقول أن جميع أعمالي الفنية السابقة، كانت أكثر سطحية.
- أي عمل فني سابق تعني؟

- جميع الأعمال الفنية التي سبقت منظر النافذة.

امعنت التفكير ثانية، ثم قلت:

- لا ليس هذا تماماً... ليس هذا... ليس انها كانت أكثر سطحية.
ماذا كان يا ترى...؟ حتى تلك اللحظة لم يكن قد خطرت لي أبداً أن افكر في تلك المشكلة وقد ادركت توأ، إلى أي مدى كنت أرسم منظر النافذة كمن يسير وهو نائم. وكما لو أنني أحدث نفسي أردفت قائلاً:

- لا، ليس انها كانت أكثر سطحية. لا أدري، كل هذا له علاقة بالبشرية جمعاء، أتفهمين...؟ اذكر أنني قرأت قبل أيام من رسم تلك اللوحة ان معتقلاً في احد المعسكرات طلب طعاماً، فاجبروه على أكل فأرة حية، اظن احياناً أن لا معنى لأي شيء. فعلى كوكب صغير، يسير نحو العدم منذ ملايين السنين، نولد وسط الآلام ونترعرع، ونجاهد، ونمرض، ونتألم، ونسبب الألم للآخرين ونصخب، ونموت، يموت أناس، في حين يولد آخرون، ليبدأ تكرار الملهاة العقيمة من جديد.

أ يكون الأمر كذلك حقاً...؟... استغرقت في التأمل في هذه الفكرة عن تفاهة الأشياء وعقمها. هل حياتنا كلها ليست سوى سلسلة من الصرخات المجهولة في صحارى أجرام لا تبالي...؟

بعد فترة صمت طويل اضفت:

- منظر الشاطئ هذا يخيفني، وان كنت أعلم أنه يمثل شيئاً أكثر عمقاً لا

بل أريد أن أقول، انه يمثلني تمثيلاً عميقاً . نعم . . . هكذا . ان الامر لم يتضح بعد، كلا . . لكنه يمثلني تمثيلاً عميقاً .

سمعتها تقول :

- ربما كان تعبيراً عن اليأس .

فنظرت بقلق وقلت :

- نعم يبدو لي أنه تعبير عن اليأس . ألا ترين انك تشعرين كما أشعر؟ . سألتني بعد لحظات :

- وهل يبدو لك أن التعبير عن اليأس يستحق الاطراء؟
فاجاني سؤالها، فرحت أتأملها وقلت :

- لا . يبدو لي أنه ليس كذلك . وانت، ماذا تعتقدين؟

ظلت صامتة فترة طويلة، ثم استدارت وسمرت نظراتها في وجهي، وقالت
كما لو أنها ترد على سؤالها هي :

- ان كلمة اطراء لا مكان لها هنا، ما يهم هو الحقيقة .
فسألتها :

- وهل تعتقدين ان هذا المنظر حقيقي؟

فقلت بشيء من التصميم :

- من المؤكد انه حقيقي .

تأملت قسماً وجهها، ونظراتها القاسية بقلق، ورحت اسائل نفسي : لم
هذه القسوة . . ؟ لماذا . . ؟ ولعلها شعرت بقلقي، وبحاجتي إلى المشاركة
الوجدانية، فلانت نظرتها لفترة، وبدت كأنها تمد لي جسراً . لكنني شعرت انه كان
جسراً مؤقتاً، هشاً، معلقاً فوق هاوية .

وبصوت مختلف اردفت تقول :

لا أدري ماذا ستستفيد من رؤيتي . إنني أسيء إلى جميع الذين يقتربون مني .

مني .

اتفقنا على لقاء قريب . اعتراني الخجل عندما فكرت في أن أصارحها بأني أود ان ارها في اليوم التالي ، او انني اود مواصلة اللقاء بها هناك في المكان ذاته ، وانها يجب أن لا تتبعد عني أبداً . ورغم أنني أتمتع بذاكرة خارقة ، لكن سرعان ما يعتريني شروء محير . لا أدري ماذا قلت لها في تلك اللحظة ، انها اتذكر أنها اجابت بانه يتعين عليها ان تنصرف .

اتصلت هاتفياً بمنزلها تلك الليلة . ردت علي امرأة . وحين قلت لها اني اود ان اكلم الأنسة ماريا اريبارني ، بدت مترددة للحظة قبل ان تقول انها ستري ان كانت موجودة . وسمعت في الحال صوت ماريا وهي ترد علي بلهجة متكلفة ، مما جعلني احس بالضيق . قلت لها :

- ماريا . لا بد أن أراك ، لم تمر لحظة واحدة منذ أن افترقنا إلا وأنا أفكر فيك . توقفت وأنا ارتجف ، لم تجب ، فقلت بقلق :

- لماذا لا تردين . . ؟

سمعتها تترك سماعه الهاتف وهي تقول :

- انتظر لحظة .

بعد فترة قصيرة ، عدت اسمع صوتها المألوف ، وبدا لي انها كانت ترتجف أيضاً . قالت :

- لم يكن في وسعي أن أتكلم .

- لماذا . . ؟

- هنا يدخل ويخرج أناس كثيرون .

- وكيف يمكنك أن تتكلمي الآن .

- لأنني اغلقت الباب ، حينما اغلق الباب يدركون انه يجب عليهم ألا يزعجونني .

عدت أكرر بلهجة عنيفة :

- ماريسا، لا بد أن أراك، لم أتمكن منذ الظهر من القيام بأي شيء سوى التفكير فيك .

لم تجب، فسألتها :

- لماذا لا تجيبين؟

فترددت وهي تقول :

- كاستيل . .

فصحت بها غاضباً :

- لا تناديني كاستيل

فعادت تقول باستحياء :

- خوان بابلو .

وشعرت مع هاتين الكلمتين بسعادة لا حدود لها، إلا أن ماريسا توقفت عن

الكلام ثانية، فسألتها :

- ماذا جرى . . . ؟ لماذا لا تتكلمين . . ؟

فتمتعت :

- وأنا أيضاً . .

سألتها بقلق :

- وانت أيضاً . . ماذا . . ؟

فقالت :

- وأنا أيضاً لم يشغلني أمر سوى التفكير .

فتابعته أسألهما بنهم :

- وبماذا تفكرين . . ؟

- بكل شيء .

- بكل شيء . . ؟ كيف . . ؟ أي شيء . . ؟

- في غرابة كل هذه الأمور . لوحتك ، لقاء الأمس ، واليوم . . ما ادراني . .
ان عدم الدقة يثيرني دوماً ، فأجبتها :
- نعم ، قلت لك إني لم أفكرُ إلا فيكَ أنتِ ، ولكنك لم تقولي إنك كنت
تفكرين في أنا .

انقضت فترة قبل ان تجيب :
- أقول لك إني أفكر في كل شيء .
- لكنك لم تذكرني التفاصيل .
- لأن كل ذلك بالغ الغرابة . . لقد كان غريباً حقاً . اني حائرة جداً لقد
فكرت فيك طبعاً .

خفق قلبي بشدة . كنت أود معرفة التفاصيل ، فالتفاصيل تثيرني وليس
العموميات فسألتها بنهم بالغ :
- لكن كيف . كيف ؟ . . لقد فكرتُ في كل ملمح من ملامحك ، في وجهك
حينما كنت تنظرين إلى الشجرة ، في شعرك الكستنائي ، في نظراتك القاسية ،
وكيف كانت تلين فجأة في مشيتك .

قاطعتني فجأة :
- يجب علي أن أنهي الحديث . اري أناساً مقبلين
عاجلتها بالقول :

- سأتصل بك صباح غد .

فأجابت بسرعة :

- حسناً .

قضيت ليلتي قلقاً، لم استطع أن أرسم أو أن استعمل الفرشاة، رغم كل ما بذلت من محاولات لبدء عمل ما. خرجت من المنزل، وسرعان ما وجدتني اتمشى في شارع كوريتس، اعتراني عارض في غاية الغرابة، فقد كنت انظر إلى جميع الناس بلطف. اظني سبق وقلت اني سأقوم بسرد هذه القصة بامانة مطلقة، وسأقدم الآن أول برهان على ذلك باعترافي باحد اسوأ عيوبي :

اني أنفر من الناس دوماً، وانظر إليهم باشمئزاز ايضاً، وبصورة خاصة عندما يجتمعون على شكل جمهور، لا أحتمل الشواطىء في الصيف أبداً، كنت أميل إلى بعض الرجال وإلى قلة من النساء، واحبهم حباً جماً، وكنت اشعر باعجاب نحو البعض (لست حسوداً)، وبالتعاطف نحو البعض الآخر، وأما الأطفال فقد كنت دوماً أشعر بعطف وحنون نحوهم (وبصورة خاصة عندما أحاول جاهداً نسيان انهم - في نهاية الأمر - سيصبحون كباراً كالآخرين). ولكن البشرية بوجه عام كانت تبدولي بغیضة دوماً. ولا يخرجني ان أعلن أن مجرد ملاحظة بعض الملامح والاسارير كانت تمنعني من الأكل طيلة النهار أو من الرسم طيلة أيام.

انه لمن الغريب حقاً أن نجد الجشع، والحسد، والعجرفة، والفظاظة، والشره، وبصورة عامة، كل تلك المجموعة من الصفاف التي تصوغ الطبيعة الانسانية وقد تجسدت في وجه، أو في مشية، أو في نظرة. ويبدولي انه من الطبيعي بعد لقاء كهذا ان يفقد المرء شهيته للطعام، أو الرسم وحتى العيش ايضاً. ومع ذلك أود التأكيد اني لا أفخر بهذه الصفة، إذ أعلم انها دليل على الصلف، وأعلم ايضاً ان نفسي كانت كثيراً ما تفيض بالجشع، والعجرفة والفظاظة، لكنني قلت اني سأروي هذه القصة بامانة مطلقة، وهكذا سأفعل.

في تلك الليلة بدا لي كأن احتقاري للبشرية قد تلاشى، او انه - على

الاقْلُ - قد اختفى مؤقتاً. دخلت مقهى مارسوتو، واظنكم تعلمون ان الناس يذهبون إلى هناك لسماع موسيقا التانغو، وهم يصغون اليها كمؤمن بالله يصغي إلى نشيد الألام للقديس متى.

في صباح اليوم التالي ، وعندما قاربت الساعة العاشرة ، اتصلت بمنزلها هاتفياً . اجابتنى المرأة التي تولت الرد أمس . ولما سألت عن الأنسة ايريبارني ، قالت انها سافرت إلى الريف منذ الصباح . اذهلني ما سمعت فسألتها :
- إلى الريف؟

- نعم ياسيدي . هل انت السيد كاستيل . . ؟

- نعم أنا كاستيل .

- تركت لك رسالة هنا وطلبت المذدرة لأنها لم تكن تعرف عنوانك .
لقد علقت آمالاً كبيرة على رؤيتها في ذلك اليوم ، وكنت انتظر من اللقاء اموراً بالغة الأهمية ، بيد أن ذلك كله تلاشى لدى سماع نبأ سفرها . وراحت تخطر لي سلسلة من الأسئلة :

لماذا قررت الذهاب إلى الريف . . ؟ . . من الواضح أنها عازمت على ذلك بعد حديثنا الهاتفي ، ولو لم يكن الأمر كذلك ، لانبأني بنيتها في السفر ، ولما كانت تستجيب إلى طلبي في الاتصال بها في اليوم التالي . ولكن ، إذا كانت قد قررت الذهاب بعد حديثنا الهاتفي ، ايمكن أن تكون المكالمة سبب ذلك القرار؟ وإذا كان الأمر كذلك فلماذا . . ؟ أكانت تود الهرب مني مرة أخرى . . ؟ أم كانت تخشى من لقائنا في اليوم التالي . . ؟

ايقظ سفرها المفاجيء إلى الريف بوادر الشك في نفسي ، وبدأت - كما هي عادتي - أعثر على تفاصيل مريبة لم أكن أعيرها اهتماماً من قبل .

ماذا كانت تخفي وراء ذاك التباين في صوتها خلال حديثنا الهاتفي أمس . . ؟ من كان أولئك الناس الذين «يدخلون ويخرجون» ويحولون دون أن تتكلم بصورة طبيعية . . ؟ ثم إن ذلك يبرهن أيضاً على أنها تتقن التصنع .
ولماذا ترددت تلك المرأة عندما سألت عن الأنسة ايريبارني . . ؟ لكن قولها : «عندما

اغلق الباب يدركون انه يتعين عليهم ألا يزعموني» قد سجل في ذاكرتي كما لو انه حفر بهادة حمضية، وجعلني افكر بما يحيط بهاريا من الظلال والشكوك.

خطرت لي هذه الأفكار - لأول مرة - حين كنت اسرع في طريقي إلى مرها. والغريب أنها لم تسأل عن عنواني، رغم أني كنت أعرف عنوانها ورقم هاتف منزلها، كانت تقطن في شارع بوساداس، قريباً من زاوية شارع سيفر. عندما وصلت الطابق الخامس وضغطت على زر الجرس شعرت بأن نفسي مفعمة بعاطفة جياشة.

فتح الباب خادم بدا كأنه بولوني، أوشيء من هذا القبيل. وعندما عرفته بنفسني قاذني إلى قاعة صغيرة غاصة بالكتب. كانت الرفوف تغطي جدرانها حتى السقف، كما ان كتباً كثيرة كانت مكدسة فوق طاولتين صغيرتين، وفوق إحدى الأرائك أيضاً، وقد استرعى انتباهي ضخامة حجم الكثير من الاجزاء.

وقفت ألقى نظرة في المكتبة، لكنني شعرت فجأة أن أحداً كان من خلفي يراقبني بصمت، استدرت وإذا برجل في آخر القاعة، طويل القامة نحيل الجسم، مليح المحيا يتسم وهو يتطلع صوبي، بيد أن نظراته لم تكن مسددة نحوي تماماً. ورغم ان عينيه كانتا مفتوحتين فقد ادركت تواتاً انه اعمى. وادركت سر تلك الكتب ذات الحجم الكبير غير المألوف.

قال بود وهو يمد لي يده:

- انت السيد كاستيل. . أليس كذلك؟

- نعم يا سيد ايريبارني.

مددت يدي اصافحه وقد انتابتني الحيرة وأنا أفكر: ما عساها تكون رابطة

القربة العائلية التي تشده إلى ماريا.

وبينما كان يشير إلي كي اتخذ مكاني، ابتسم، وشف محياه عن تعبير ساخر

عابر وقال:

- إنني لا أدعى «ايريبارني»، وأرجو ألا تناديني ياسيد، فأنا «أجيندي» زوج مارنا

وأضاف على الفور، كأنه اعتاد على تقييم لحظات الصمت، أو على تأويلها :

- ان ماريا تكني نفسها دائماً بكنية عائلتها .

كنت أقف جامداً كتمثال، بينما استرسل يقول :

- لقد حدثني كثيراً عن لوحاتك . وبما اني فقدت بصري منذ سنوات قليلة فلا زلت استطيع تصور الاشياء بشكل جيد تماماً .

بدا كأنه يود الاعتذار بسبب عماه، ولم أعرف ماذا أقول . كم تمنيت ان اكون في الشارع وحيداً، لأفكر في كل شيء . . . !

تناول رسالة من جيبه، وقدمها الي قائلاً :

- هاك الرسالة .

قالها ببساطة وكأن الامر لا ينطوي على أي شيء غير مألوف . تناولتها وهممت في ان ادسها في جيبى حينما قال، وكأنه رأى ما كنت أقوم به :

اقرأها ولا تبالي، فبما أنها من مارياً يجب ألا تنطوي على أي أمر ملح .

كنت ارتعش وأنا أفض الغلاف، وبينما بدا يشعل لفافته بعد ان قدم لي واحدة اخرجت الرسالة، وكانت تحتوي على عبارة واحدة فقط .
«وأنا أفكر فيك أيضاً» .

ماريا

عندما سمعني الضرير أطوي الورقة سأل :

- لا شيء ملح كما افترض . . ؟

اجبته بعد كبير عناء :

- اجل لا شيء ملح

شعرت بوحشية وأنا أرى الضرير يضحك وهو يصبوب عينيه الجاحظتين نحوي . قال وكأنه يحدث نفسه :

- هكذا هي ماريا، تحير الكثيرين نزواتها المتسرعة . تقوم بتصرفات

اندفاعية لا تغير من الواقع شيئاً. كيف اشرح لك ذلك . . ؟
نظر إلى الأرض شاردأً، وكأنه يبحث عن تفسير اشد وضوحاً، ثم تابع
يقول :

إنها كمن يقف في وسط الصحراء، ويغير مكانه فجأة وبسرعة كبيرة،
افهمت؟ . . . ان السرعة ليست بذات اهمية، فهو سيكون دائماً امام منظر
الصحراء نفسه .

فكر لحظات وهو ينفث دخان لفافته، ثم استطرد قائلاً كأنه لا يشعر بوجودي :
- لا أدري إن كان الأمر كذلك تماماً، فانا لست بارعاً في استعمال
الاستعارات والتشابه .

لم أجد الفرصة المناسبة للفرار من تلك القاعة اللعينة، وبدا أن الضرب لم
يكن على عجلة من امره، فرحت أفكر . . أية ملهاة كريهة هذه . . ؟
اضاف اجيندي قائلاً :

- فهي على سبيل المثال . نهضت باكراً، وقالت لي أنها ذاهبة إلى المزرعة .
فسألته دون ان أعي ماذا أقول :

- إلى المزرعة . . ؟

أجاب :

- نعم . إلى مزرعتنا . مزرعة جدي، التي هي الآن بحيازة ابن عمي
«هونتر» أظن أنك تعرفه .

- هذا الكشف الجديد ملأني همّاً وحفيظة في آن معاً . ماذا عساها تجني من
العلاقة مع هذا الفاسق الأحق المستهتر . . ؟ حاولت ان اهدىء من روعي ممناً
النفس بأن ماريا لم تذهب إلى المزرعة من أجل هونتر، وانما لمجرد حبها للعزلة في
الريف، وفي المزرعة التي تخص العائلة . ومع ذلك بقيت في غاية الحزن . قلت
بمرارة :

- لقد سمعت به .

وقبل ان يتسنى للضرير ان يتفوه بكلمة ، اضفت بفظاظة :
- يتعين علي ان انصرف .

فقال اجيندي :

- كم يؤسفني ذلك ، آمل ان نلتقي ثانية

- أجل ، أجل طبعاً .

رافقني حتى بلغت الباب . صافحته وخرجت مسرعاً . وبينما كان المصعد

يهبط ببطء ، رحت اردد بغيظ : « اية ملهاة كريهة هذه ؟ » .

كنت في أمس الحاجة إلى التفكير بصفاء وهدوء . سرت في شارع «بوسادا» متجهاً إلى حديقة «لاريكوليتا» .

كان رأسي جحيماً، تختلط فيه خواطر شتى، ومشاعر حب وكرهية وتساؤلات، وضغائن، وذكريات، ثم تأخذ في الظهور تباعاً، الواحدة تلو الأخرى .

ماذا كان وراء فكرتها تلك في أن تستدرجني إلى بيتها لاستلام رسالة ويقوم زوجها بتسليمها إلي؟ ولماذا لم تنبهني إلى أنها كانت متزوجة؟ وماذا بحق الشياطين كانت تفعل مع ذلك السافل هونتر في المزرعة؟ ولماذا لم تنتظر مكالمتي . . ؟ وهذا الضرير . . اي نوع من الحشرات كان؟ لقد قلت اني كونت فكرة مقبلة عن البشرية، ويجب أن أعترف الآن بأنني لا أطيق العميان أبداً وأشعر إزاءهم باشمئزاز شبيه بذاك الذي اشعر به إزاء بعض أنواع الزواحف الباردة الرطبة . . كالأفاعي مثلاً . وان اضفت إلى ذلك قراءة رسالة زوجته بحضوره التي قالت فيها : «وأنا أفكر فيك أيضاً» فليس من الصعب إدراك ما كنت أشعر به من اشمئزاز في تلك اللحظات .

حاولت قليلاً أن اضع حداً لفوضى افكاري ومشاعري، وان اتصرف بمنهجية وفق عاداتي . كان لا بد لي من الانطلاق من البداية . ومن الواضح ان البداية (المباشرة على الأقل) كانت المكالمات الهاتفية . ففي تلك المكالمات امور غامضة كثيرة .

وبادئ ذي بدء، إن كان أمراً طبيعياً جداً، في هذا المنزل، ان تقيم ماريا علاقات مع رجال، كما برهنت واقعة تسليم زوجها تلك الرسالة . فلماذا تلجأ إلى التكلف وتستخدم لهجة مكتيبة حينما يكون الباب مفتوحاً . . ؟ ثم، ماذا كانت

تعني بقولها: «عندما يكون الباب مغلقاً، يدركون انه يتعين عليهم ألا يزعموني». . . . ؟ . كان من الواضح أنها الفت ان توصلد الباب لتحدث بالهاتف، لكن ما لا يمكن تصديقه هو ان تفعل ذلك عندما تحدث أحد اصدقاء الأسرة بما لا يخرج عن نطاق الثروة. الأمر الذي يدعو إلى الافتراض انها كانت توصلد الباب من أجل مكالمات شبيهة بمكالمتنا. وإذن، فإن في حياتها أشخاصاً آخرين من امثالي، لكن كم كان عددهم . . ؟ . من هم . . ؟ . انصرف ذهني أولاً إلى هونتر، لكنني استبعدته في الحال. لم تتحدث معه في الهاتف، إن كانت تستطيع رؤيته في المزرعة متى تشاء . . ؟ من يكون هؤلاء والحالة هذه . . ؟

فكرت في ما ان كنت بهذا قد انتهيت من مسألة الهاتف. ولكن . . لا لم انته بعد إذ ما زالت مسألة جوابها على سؤال المحدد معلقة. فعندما سألتها ان كانت تفكر بي لاحظت بمرارة أنها أجابت بعد لف ودوران: ألم أقل لك انني فكرت في كل شيء؟ فجوابها على السؤال بسؤال آخر، ليس فيه أي التزام، ثم ان الدليل على ان ذاك الجواب لم يكن واضحاً هو أنها وجدت نفسها في اليوم التالي (أوفي تلك الليلة) مضطرة أن تجيب بصورة محددة تماماً بواسطة رسالة خطية.

قلت «لنتقل إلى الرسالة». اخرجتها من جيبى، واعدت تلاوتها:
«وأنا أفكر فيك أيضاً

ماريا»

كان الخط عصبياً، أو كان - على الأقل - خط انسان عصبى. ليس الأمر سيان فلو أن الرأي الأول هو الصحيح حقاً، لكان مجرد اعراب عن انفعال عابر، ولكن في النتيجة دليلاً يؤيد المعضلة التي أنا بصدددها. ومهما كان الأمر، فان التوقيع: ماريا أثر في جداً. هكذا ببساطة: ماريا. تلك البساطة غمرتني بشعور غامض بالملكية احسست معه ان الفتاة اصبحت جزءاً من حياتي وانها غدت - بصورة ما - تخصني.

تباً لآحساسي بالسعادة ما اقصره . . فذاك الشعور الغامض مثلاً، لا يصمد أمام التحليل البسيط : . . ألم يكن زوجها يناديها أيضاً «مايا»؟ وهونتر، كان بالتأكيد يناديها كذلك، وإلا كيف كان بوسعها أن يناديها . . ؟ . . وماذا عن الأشخاص الآخرين الذين تتكلم معهم والأبواب موصدة؟ ما من امرأة، كما أتصور، تتكلم والأبواب موصدة مع من يناديها بجدية واحترام : «أيتها الأنسة ايريبارني . . .» .

«الآنسة ايريبارني . . .» الآن وقعت على سبب ما اعترى الخادمة من تردد عندما تكلمت بالهاتف أول مرة . . يا للسخريّة . . ان التمعن في الأمر جيداً، يقدم دليلاً آخر على ان تلك المكالمات لم تكن بالأمر الطارئ قط . فمن الواضح ان الخادمة كانت تستغرب . وتجذب نفسها مضطرة للتصحيح والتشديد على كلمة سيّدة عندما كان احدهم يسأل «عن الآنسة ايريبارني» بيد أنها أصبحت بحكم التكرار طبعاً، تكتفي بهز كتفيها وتعتقد أنه من الأفضل ألا تزج نفسها في تصحيحات من هذا القبيل . ترددت وكأن الأمر طبعياً، وإن لم تقم بتصحيح ما قلت .

وعندما فكرت في الرسالة، رأيت ان هناك ما يبرر العديد من الاستنتاجات . وبدأت بالواقعة الأشد بعداً عما هو مألوف وهي : طريقة تسليمي الرسالة . وتذكرت ما روتّه لي الخادمة : «طلبت المَعذرة لأنها لم تكن تعرف عنوانك» . وفي الواقع لا هي طلبت مني عنواني، ولا أنا خطر ببالي ان ازودها به، لكنني لو كنت في مثل موقفها، لكان أول ما أقوم به، هو البحث عنه في دليل الهاتف . لا يمكن ان يعزى موقفها إلى مجرد الكسل، ولا يمكن تصديق ذلك . وكان لابد من التسليم بالنتيجة التالية إذن : «ماريا كانت تريدني أن أذهب إلى بيتها للقاء زوجها وجهاً لوجه . . .» . ولكن لماذا . . ؟ هنا وصلت إلى موقف بالغ التعقيد : . . لعلها كانت تشعر بلذة عندما تستخدم زوجها كوسيط، أو لعل زوجها هو الذي كان يشعر بلذة عندما يؤدي هذا الدور . أو لعلها كانا يشعران

باللذة معاً. وفضلاً عن هذه الافتراضات التي تعزى إلى حالات مرضية بقي احتمال معقول وهو: . . . ان ماريا رغبت في ان تنبهي إلى انها كانت متزوجة، كي ارى بنفسى، انه لا يليق بي أن أمضي قدماً في علاقتى معها.

إننى واثق ان الكثيرين ممن يقرأون هذه الصفحات الآن، سيؤيدون الافتراض الأخير، وسيحكمون انه ليس هناك سوى ممن يمكن ان يقتنع بالافتراضات الأخرى.

فى تلك المرحلة من حياتى التى كانت حافلة بالأصدقاء، كثيراً ما كانوا يهزأون من هوسى الدائم فى اختيار السبل الأشد تعقيداً، وإننى اتساءل الآن: لماذا يجب أن تكون الحقيقة مبسطة. . ؟ لقد علمتني التجارب أن الأمر لا يكون كذلك أبداً، وما يبدو فى غاية الوضوح أحياناً، أو يترأى انه ناجم عن علة بسيطة، قد ينطوي دائماً على مسببات أكثر تعقيداً، وكمثال نصادفه كل يوم: . . . ان الذين يتصدقون على الفقراء يعتبرون انفسهم، بوجه عام، اسخى وأفضل من الآخرين الذين لا يتصدقون، وسأسمح لنفسى ان اعالج هذه النظرية المبسطة بكل إباء. فالكل يعلم ان قطعة نقد أو كسرة خبز، لا تحل مشكلة متسول (متسول حقيقى). وإنما تحل المشكلة النفسية للسيد المتصدق الذى يبتاع هكذا، وبلا مقابل تقريباً، طمأنينة روحية، وشهادة بأنه كريم. فاحكموا اذن، إلى أى حد يبلغ الشح عند هؤلاء، حين لا يقدمون على بذل أكثر من درهم فى اليوم، كي يضمنوا طمأنينتهم الروحية وغرور تصورهم بأنهم طيبون. أى طهر روحي وأية شجاعة أدبية يتطلب القضاء على البؤس الانسانى بعيداً عن أعمال النفاق (والربا) هذه. . . !

ولكن لنعد إلى الرسالة.

ان انساناً سطحياً فقط، يمكن أن يختار هذا الافتراض الذى ينهار أمام أبسط تحليل: «ان ماريا رغبت ان تنبهي إلى انها كانت متزوجة كي ارى بنفسى انه لا يليق بي أن أمضي قدماً فى علاقتى معها». حسناً، ولكن، لم اللجوء إلى

أسلوب على هذه الدرجة من التعقيد والقسوة . . ؟ ألم يكن بوسعها أن تُعلمني شخصياً . . ؟ . . أوهاتفياً . . ؟ . . ألم يكن بوسعها أن تكتب لي إن لم تملك الجرأة على مواجهتي شخصياً . . ؟ ما زالت لدي بعد حجة دامغة . . لماذا لم تأت الرسالة على ذكر زوجها . ؟ ولماذا لم تضرع إلي كي اسموبعلاقاتنا إلى مستوى أكثر اتزاناً . . ؟ كلا يا سادة ان الأمر نقيض ذلك تماماً . فالرسالة كانت ترمي إلى توطيد علاقاتنا، وتشجيعها، ودفعها إلى طريق اشد خطورة .

يبدو انه لم يبق سوى مناقشة الافتراضات المتعلقة بالامراض النفسية . هل كانت ماريّا تشعر بلذة في استخدام اجندي كوسيط . . ؟ أم أنه هو الذي كان يبحث عن تلك المناسبات . . ؟ أم أن القدر كان يعبث عندما جمع بين مخلوقين متشابهين ؟

وشعرت فجأة بالندم على ما أوصلني اليه من ابعاد متطرفة هوسي في القيام بتحليل لا حدود له للأفعال والأقوال، وتذكرت نظرة ماريّا المعلقة على شجرة الحديقة حينما كانت تستمع إلى آرائي، تذكرت خجلها وهروبها الأول، وبدأ يغمرني فيض من الحنان نحوها بدت لي أنها مخلوق هش يعيش في وسط قاس مفعم بالبؤس والبشاعة . واحسست بالشعور الذي اعتراني مراراً، منذ لحظة اللقاء في قاعة المعرض : شعوري بأنها كانت مخلوقاً شبيهاً بي تماماً .

نسيت تصوراتي الجافية، واستتاجاتي القاسية، ورحت اتخيل وجهها ونظرتها التي كانت تذكرني بشيء لم أتمكن من اكتناحه، وكيف كانت تفكر بحزن وعمق . وشعرت ان الحب المبهم الذي كنت اغذيه خلال سنوات العزلة قد تجلى في ماريّا . فكيف يمكنني أن أتصور إذن أموراً لا يصدقها عقل كهذه . . ؟ وحاولت ان انسى حماقة جميع استتاجاتي حول الهاتف، والرسالة والمزرعة، وهونتر .

ولكنني لم أتمكن .

كانت الأيام التالية مثيرة . في غمرة تهوري لم اسأل متى ستعود ماريا من المزرعة . لكنني عدت في يوم زيارتي لمنزها استفسر عن موعد رجوعها ، فردت الخادمة قائلة ، انها لا تعرف شيئاً ، فطلبت منها عنوان المزرعة .

كتبت في تلك الليلة رسالة عاجلة اسألها فيها عن تاريخ عودتها ، واطلب منها ان تهتف لي فور وصولها إلى بوينس ايرس ، أو أن تكتب الي . وذهبت إلى مركز البريد ، وادعت الرسالة مسجلة كي اتلافى مخاطر عدم وصولها .

قضيت - كما قلت - أياماً بالغة الاثارة ، وعادت الأفكار السوداوية - التي كانت تعذبني بعد زيارتي لمنزها في شارع بوساداس - تدور في رأسي الف مرة . حلمت انني ازور اثناء الليل منزلاً قديماً منعزلاً اعرفه ، وكنت مولعاً به منذ أيام الطفولة جداً ، بيد اني عندما دخلته ، أثار في نفسي بعض الذكريات . ووجدتني اضيق في الظلام احياناً أو أتخيل ان اعداء متخفين يتربصون بي من الخلف ، أو أناساً يتهامون من حولي وهزأون بي وبسذاجتي . من كان اولئك . . ؟ وماذا كانوا يريدون . . . ؟ لكنني رغم كل ذلك ، كنت أشعر وأنا في ذاك المنزل ، أن خلجات الحب الطفولي القديم ، بكل ما فيها من ارتعاشات واحاسيس عذبة مترعة بالطيش والرعونة والخوف والفرح ، كانت تنبعث في . عندما استيقظت ادركت ان المنزل لم يكن سوى منزل ماريا .

كان فكري طيلة الأيام التي سبقت وصول رسالتها إلي، أشبه ما يكون،
بباحث تائه وسط موقع يحيط به الصباب. كنت أتوصل، بعد جهد كبير، إلى أن
الملح هنا وهناك أشباح أناس وأشياء مبهمه وأطياف مخاطر وهوى غامضة محيرة وكان
وصول الرسالة إلي، كشروق الشمس.

لكنها كانت شمساً سوداء، شمس ليل مظلم، لا أدري ان كان بوسعي ان
استعمل تعبيراً كهذا، ولكن رغم اني لست كاتباً، ورغم اني لست متأكداً من دقة
التعبير، فلن أغير كلمة (ليل). فلعلها هي وحدها الكلمة المناسبة التي تنطبق
على ماريّا، من دون سواها من الكلمات التي تشكل منها لغتنا المشوهة.
هذه هي الرسالة التي بعثت بها إلي :

« . . . لقد قضيت ثلاثة أيام غريبة : البحر والشاطئ، والدروب، كانت
تحمل إلي ذكريات أزمنة غابرة، لم تقتصر على الصور وحسب، إنما حملت أيضاً،
الأصوات والصرخات، وفترات الصمت الطويل في أيام ماضية. إنه لعجيب
حقاً. فالحياة تكمن في بناء ذكريات مستقبلية، وفي هذه الساعة، هنا أمام البحر،
أعلم أنني أقوم بتحضير جزئيات ذكريات، قد تجلب لي الغم واليأس يوماً ما.
. . . البحر هنا أزلي صاخب، لا عبراتي تفيد، ولا ساعات انتظاري
على الشاطئ الموحش وأنا أنظر إلى البحر بعناد تنفع. أكنت قد تكهنت
ورسمت ذكرياتي تلك؟ أم أنك كنت ترسم ذكريات الكثيرين من البشر أمثالي
وأمثالك؟

. . . لكن صورتك تقف الآن معترضة، إنك بين البحر وبينني، عيناى
تلتقيان عينيك، إنك هادىء، كتيب قليلا، تنظر إلي كأنك تستغيث.

ماريا

كم كنت أفهمها . . . ! . . . وبالعروعة الشاعر التي بعثتها هذه الرسالة في

نفسي . . . ! . . . وحتى مجرد مخاطبتي من دون تكلف، سرعان ما عزز شعوري بأن ماريا كانت لي . لي وحدي فقط . . . « . انك بين البحر وبينني » . هناك . . لم يكن احد سواي ، كنا وحدنا نحن الاثنين تماماً كما كنت قد ادركت بحدسي منذ اللحظة الأولى التي وقفت فيها تتأمل منظر النافذة . حقاً ، كيف يمكنها ألا تخاطبني دون تكلف طالما اننا نعرف بعضنا البعض منذ الأزل ، منذ الف سنة خلت . . . ؟ . . . ومنذ ان توقفت امام لوحتي تلك ، تتأمل ذاك المنظر الصغير ، من دون أن تسمع أو ترى الجموع التي كانت تحيط بها ، كنا كأننا نتخاطب بلا تكلف ، ومنذ ذلك الحين عرفت من تكون وكيف كنت بحاجة إليها وكيف كانت بحاجة إلي ايضاً .

آه . . . ومع ذاك فقد قتلتك . . . ! وكنت أنا الذي قام بقتلك ، أنا الذي كنت كمن يرى عبر جدار زجاجي وجهك الصامت القلق ولا أتمكن من لمسه . أنا . . . ما أشد غبائي . وما أشد ضلالي ، وما أشد انانيتي ، وما أشد قسوتي . يكفي هذا الفيض من العواطف . لقد قلت اني سأروي هذه القصة باقتضاب وهكذا سأفعل .

أحببت ماريًا حباً عارماً، ومع ذلك، لم يلفظ أحداً كلمة «حب» أمام الآخر. انتظرت بلهفة عودتها من المزرعة لأبوح لها بحبي . لكنها لم تعد . وبينما كانت الأيام تمضي، كان جنوني يشتد . كتبت اليها رسالة ثانية، أقول فيها ببساطة : احبك يا ماريًا، احبك، احبك . . . ! وأخيراً، تلقيت بعد يومين، رسالة جوابية، تتضمن هذه الكلمات فقط : « . . . اخشى أن أسوء اليك كثيراً . . . » . فاجبتها في الحال : « . . . لا يهمني ما يمكنك أن تفعل بي . ان لم يكن بوسعي ان احبك فسأمت . كل ثانية تمر من دون أن أراك هي عذاب لا نهاية له . . . » . مرت أيام عصبية من دون أن أتلقى جواباً، فكتبت اليها يائساً أقول : انك تدوسين هذا الحب . . . » .

سمعت صوتها عبر الهاتف في اليوم التالي، كان بعيداً مرتعشاً . وما عدا كلمة ماريًا لتي كنت ارددها باستمرار، لم اهتمد إلى النطق بأي شيء آخر، ولم يكن بوسعي أن أفعل غير ذلك إذ ان حنجرتي كانت أعجز من ان تنطق بأية كلمة أخرى .

قالت :

- غداً أعود إلى بوينس ايرس . سأهاتف لك فور وصولي .

ولما حل عصر اليوم التالي، هتفت لي من منزلها فقلت :

- اود رؤيتك حالاً .

فأجابت :

- أجل، سنلتقي اليوم .

فقلت :

- انتظرك في حديقة سان مارتين .

بدا لي أن ماريا ترددت قليلاً . ثم اجابت :

- كنت أفضل حديقة لاريكوليتا، سأكون هناك عند الساعة الثامنة .

كيف كنت انتظر تلك اللحظة . . . ! . وكيف كنت أهتم في الشوارع على غير هدى كي يمر الوقت سريعاً . . . ! . أي حنو كان يغمر نفسي ، وكم كان كل شيء يبدو رائعاً . . العالم ، وأمسيات الصيف ، والأطفال يلعبون على الرصيف . . ! يا للحب كيف يخطف الأبصار ، واية قدرة سحرية على التغيير يمتلك ! اجل . . روعة العالم ان تضحك حتى الموت . . !

كانت قد مضت بضع دقائق بعد الثامنة عندما رأيت ماريا تقترب ، وهي تبحث في الظلمة . كان الوقت متأخراً ، فلم اتمكن من رؤية وجهها لكنني عرفت من مشيتها .

جلسنا سوياً ، كنت اضغط على ذراعها واردد اسمها باستمرار ، ولم اوفق في النطق بأي شيء آخر . أما هي فكانت تلتزم الصمت .
ثم سألتها بعنف فجأة :

- لماذا ذهبت إلى المزرعة . . ؟ . . . ولماذا تركتني وحدي . . ؟ . . لماذا تركت تلك الرسالة في المنزل . . ؟ . . ولماذا لم تقولي انك متزوجة . . ؟ .

لم تجب . عصرت ذراعها ، فتأومت ، وقالت بلطف :

- انك تؤذيني يا خوان بابلو .

- لماذا لا تقولين شيئاً . . ؟ . . لماذا لا تجيبين . . ؟

لم تقل شيئاً ، فصرخت :

- لماذا . . ؟ لماذا . . ؟

قالت أخيراً :

- لماذا يجب أن يكون لكل شيء جواب . . ؟ دعنا من الحديث عني

ولتحدث عنك ، وعن أعمالك ، وعن اهتماماتك . لقد فكرت كثيراً في لوحاتك

وفي ما قلته لي في حديقة سان مارتين . اود ان أعرف ماذا تفعل الآن . وبهاذا تفكر،
وفيها إذا كنت قد رسمت ام لا .

عدت اعصر ذراعها بغضب واجبت :

- لا . . ليس ماأرغب به هو الحديث عن نفسي . أود أن نتحدث عنا نحن
الإثنين ، لا بد لي من أن أعرف إن كنت تحبيني ، لا شيء سوى ذلك : معرفة فيما
إذا كنت تحبيني .

لم تحب ، ولم اتمكن وسط الصمت والظلمة ان استشف من نظراتها ما كان
يدور في فكرها ، وفي غمرة قلقي ، اشعلت عود ثقاب ، فاستدارت بسرعة لتخفي
وجهها . امسكت بها بيدي الأخرى ونظرت إلى محياها : كانت تبكي بصمت .
قلت بمرارة :

- آه ، إذن أنت لا تحبيني .

وبينما كان ضوء عود الثقاب يتلاشى ، لمحت كيف كانت تنظر إلي بحنان ،
وعندما خيمت الظلمة من جديد ، احسست بيدها تداعب رأسي . قالت برقة :
- اني احبك طبعاً . . لماذا يجب علينا أن نبوح ببعض الأمور . ؟
اجبتها :

- نعم ، لكن كيف تحبيني . . ؟ للحب صورة متعددة . يمكن للمرء أن
يحب كلباً أو طفلاً . أنا أقصد حباً . . . حباً حقيقياً . أتفهمين . ؟
داهمني حدس غريب : اشعلت عود ثقاب آخر فجأة ، وكان ما توقعته ، فقد
كان وجه ماريا يفتر عن ابتسامة . اعني ، أنها لم تكن تبسم في تلك اللحظة ، انها
كان محياها يفتر عن ابتسامة قبل لحظة تقل عن عشر ثانية . كان يحدث أحياناً ان
استدير فجأة ، يخالجنني شعور بأن هناك من يترصدني ، فلا أجد أحداً ، ومع ذلك
كنت أشعر بأن الوحدة التي تحيط بي لم تكن سوى أمر طاريء ، وأن شيئاً عابراً قد
اختفى بعد أن خلف رعشة خفيفة بقيت تهتز في الجو . ما لمحته في محياها كان شيئاً
من هذا القبيل .

- قلت غاضباً:
- كنت تبسمين .
- فسألت بدهشة .
- ابتسم . . ؟
- نعم ، تبسمين : اني لا أخدع بهذه السهولة ابداً . إني ادقق كثيراً في تفاصيل الأمور .
- في أية تفاصيل كنت تدقق . . ؟
- كان قد استقر على وجهك شيء ما ، بقايا ظل ابتسامة .
- عادت تقول بقسوة .
- وما الذي كان يجعلني ابتسم . . ؟
- سذاجتي ، سؤالي عما إذا كنت تحبيني حقاً أم أنك تحبيني كطفل . . لا أدري . . لكنك كنت تبسمين ، لا أشك في ذلك أبداً .
- نهضت ماريا فجأة ، فسألتها مندهشة :
- ماذا دهالك . . ؟
- فأجابت بجفاء :
- إني ذاهبة
- وثبت ناهضاً من مكاني وقلت :
- كيف كيف تذهبين ؟ . .
- نعم ، إني ذاهبة .
- كيف تذهبين . . ولماذا ؟
- لم تجب ، فرحت اهزها بكلتا يدي واردد :
- لماذا تذهبين ؟
- قالت :
- أخشى ان لا تفهمني أنت أيضاً .

أثار جوابها غيظي فقلت :

- كيف . . ؟ أسألك عما هو بالنسبة الي قضية حياة او موت ، وبدلاً من أن تجيبي بتسمين ، بل تغضبين أيضاً . طبعاً لا يمكن والحالة هذه ان افهمك قالت بجفاء :

- لقد خيل إليك اني كنت ابتسم

- اني متأكد .

- انت مخطيء اذن ويؤلمني جداً أنك تصورت ذلك .

كانت أفكاري مشتتة ، وفي الواقع لم أر الابتسامة وانما ظل شيء من هذا القبيل كان على وجه عاد من توه ليبدو جاداً .

قلت وقد غلبت على امري :

- لا أدري يا ماريا . لكنني على يقين من انك كنت تبتمين .

ولزمت الصمت ، ذليلاً ، متداعياً ، ثم سرعان ما شعرت بيدها تمسك ذراعي بحنو وهي تقول بصوت بدا ضعيفاً واهناً :

- ولكن كيف كان بوسعك أن تفكر بذلك . . ؟

فاجبتها وأنا أكاد أبكي :

- لا أدري . . لا أدري .

اجلستني/ثانية ، وعادت تداعب رأسي ، ثم قالت بعد لحظات صمت :

- لقد حذرتك من أن أسيء إليك جداً ، وترى الآن كيف أنني كنت

على حق .

اجبتها :

- كان الذنب ذنبي .

فقالت وهي مستغرقة في التفكير وكأنها تتحدث مع نفسها :

- كلا ، ربما كان الذنب ذنبي .

وفكرت «يا للغرابة» .

فسألت :

- أية غرابة . . ؟

اذهلني سؤاها، واعتقدت أنها قادرة على قراءة الأفكار، (وبقيت على هذا اليقين أياماً)، ولست متأكداً، حتى اليوم، من أنني نطقت العبارة بصوت مسموع من دون ان انتبه لذلك .

في غمرة ذهولي لم أجب على سؤاها، فعادت تلح :

- اية غرابة . . ؟

قلت :

- عمرك

- عمري . . ؟

- نعم عمرك . كم لك من العمر . . ؟

- كم تعتقد . . ؟

فاجبت :

- هذا هو الأمر الغريب فعلاً، عندما رأيتك أول مرة، بدا لي أنك بنت ست وعشرين سنة، أو ما يقارب ذلك .

- والآن . . ؟

- لا . . لا . . في البدء كنت محتاراً لأن شيئاً ما غير مألوف كان يجعلني أفكر . .

- بم كان يجعلك تفكر . . ؟

- كان يجعلني أفكر بسنوات عديدة . اشعر أحياناً وأنا إلى جانبك كما لو أنني طفل .

- كم لك من العمر . . ؟

- ثمانية وثلاثون عاماً .

- انك فتى حقاً .

مكثت حائراً، لا ليقيني بأن لي من العمر ما يتجاوز مرحلة الشباب، وإنما لأنني - رغم كل ذلك - لا بد وأن أكون أكبر منها بسنوات عديدة، ولأن عمرها في جميع الأحوال، لا يمكن أن يتجاوز ستة وعشرين عاماً.

ولعلها أدركت سر دهشتي، فراحت تردد:

- انك فتى حقاً.

فسألتها بالحاح:

- وأنت كم لك من العمر..؟

فأجابت جادة:

- وما أهمية ذلك..؟

فقلت محتداً:

- ولماذا تسألين انتِ عن عمري..؟

فقالت:

- انه لحديث تافه حقاً، وهو ليس سوى غباء كله. وما يدهشني هو انك

تهتم بأمور كهذه.

أنا الذي يهتم بأمور كهذه..؟.. نحن ندير محاورة من هذا القبيل؟ كيف يمكن أن يحدث كل هذا، حقاً..؟. كنت حائراً إلى حد نسيت معه العلة التي كانت وراء السؤال الأولي الذي جرننا إلى هذا الموقف. أوبالاحرى لم أقم بالتحقيق في علة السؤال الأولى. وإنما تمكنت، بعد ساعات، عندما كنت في منزلي من إدراك المعنى العميق لتلك المحادثة التي بدت من حيث الظاهر مبتذلة جداً.

كنا خلال ما ينوف على شهر من الزمن ، نلتقي كل يوم تقريباً . لا أود أن اتذكر تفاصيل كل ما حدث طيلة هذا الوقت ، سواء الرائع منها ، أو المريع ، فقد حصلت أمور محزنة شتى أفضل الاحتفاظ بها في غياهب الذكريات .

بدأت ماريا تتردد على الرسم . تكرر مشهد عود الثقاب مرتين أو ثلاثة مرات ، مع بعض التباين في التفاصيل ، وكان يسيطر علي هاجس الاعتقاد بأن حبها كان في أحسن الأحوال حب أم ، أو حب أخت ، وإن الاتحاد الجسدي يترأى لي والحالة هذه بمثابة ضمانه حب حقيقي .

ساعترف منذ الآن ، أن هذا الاعتقاد كان بالتأكيد إحدى السذاجات الكثيرة التي كانت تدعو ماريا للابتسام والهزء بي كلما ادرت ظهري . كان الحب الجسدي يزيدني قلقاً بدلاً من ان يهدىء من روعي ، فقد رافقته شكوك معذبة جديدة ، وفصول من الخلافات المؤلمة ، والتجارب المريرة في علاقتي مع ماريا . لن انسى الساعات التي قضيناها في الرسم أبداً .

فتناقضات ماريا وتصرفاتها الغريبة جعلت مشاعري تتراوح طيلة تلك المدة ، بين حب في منتهى النقاء ، وكراهية لا تقف عند حدود ، وسرعان ما خامرتني الريبة ، بأن كل تلك التصرفات كانت مصطنعة . كانت تبدولي للحظات ، فتاة على جانب كبير من الخفر ، وفجأة كنت أخاها عاهرة ، ومن ثم يتوالى في ذهني موكب طويل من الشكوك : أين . . كيف . . من . . متى . . ؟ في مناسبات كثيرة لم يكن بوسعي نبذ الاعتقاد بأن ماريا كانت تمثل ابشع وأخبث المهازل وأنا بين يديها ، لست سوى طفل ساذج تخدعه بحكايات هيئة كي يأكل أو ينام . كان ينتابني أحياناً خجل شديد ، فأهرع لارتداء ملابسني واندفع إلى الشارع لاتنشق الهواء الطلق ، واجتر شكوكي وتطيري . وفي أحيان أخرى تكون تصرفاتي إيجابية وفظة ، كنت أهوي عليها ، وأطبق على ذراعيها بقسوة وأوليها ،

واحديق في عينيها محاولاً الحصول منها، بالقوة على ضمانات حب، حب حقيقي .
إنما ليس هذا تماماً ما أريد قوله . ويتعين علي أن اعترف بأنني ، أنا بالذات ،
لا أعرف ما أعني بهذا «الحب الحقيقي» .والأمر الغريب هو استخدامي هذا
التعبير كثيراً عندما كنت استجوبها . بيد اني لم أحلل معناه بعمق حتى اليوم . ماذا
عنت به . . ؟ أكنت أعني حباً ينطوي على الشهوة الجسدية . . ؟ لعلني ابتغيت
ذلك في غمرة اندفاعي للاتصال على نحو أرسخ مع ماريانا . إنني واثق أننا كنا في بعض
الأحيان نظفر بالاتصال ، إنما بصورة هشة وعابرة وواهية ، كانت تفضي بي إلى
شعور باليأس والوحدة اشد من ذي قبل ، يتلازم مع احساس مبهم بعدم
الارتواء ، كذلك الذي نحس به عندما نود استعادة لحظات متعة حب حلمنا به .
لا شك أننا كنا ندرك بعض لحظات المشاركة العابرة ، ومجرد وجودنا معاً ، كان
يخفف من وطأة الكآبة المرافقة لهذا المشاعر باستمرار والناجمة عن عدم قابلية أنواع
الجمال العابر هذه ، للاتصال أصلاً ، كان يكفي أن ننظر إلى بعضنا البعض كي
ندرك أننا نفكر ، أو بالأحرى أننا نتبادل المشاعر ذاتها .

لا شك أننا عانينا من قسوة تلك اللحظات كثيراً . لأن كل ما كان يحدث
بعدها كان يبدو فظاً أو بليداً ، واي امر نقوم به (كتبادل الاحاديث ، وتناول
القهوة . .) كان موجعاً ويؤكد كم كانت لحظات الوصال تلك عابرة . ولكن ما هو
اسوأ من ذلك انها كانت تؤدي إلى خلق مسافات جديدة تباعد بيننا ، لأنني وأنا في
غمرة اندفاعي لتعزيز اندماجنا ، كنت أرغمها على الاتصال الجنسي ، لكن ذلك
لم يكن يؤدي إلا إلى تأكيد استحالة اطالة تلك اللحظات او توطيدها بوساطة
فعل مادي . وكانت هي تزيد من تعقيد الأمور لأنها ربما انطلقاً من رغبتها في
ازالة تلك الفكرة الثابتة من رأسي ، كانت تفتعل الاحساس بالمتعة بصورة تكاد لا
تصدق ومن ثم كانت تأتي فصول ارتداء ملابس بسرعة ، والهرب الى الشارع ، و
الضغط على ذراعيها بقسوة ، والرغبة في انتزاع اعترافات حول حقيقة مشاعرها
وعواطفها . لقد كان كل شيء بالغ البشاعة ، إلى حد جعلها تحاول التهرب من

المتعة الجسدية كلما كنا نقرب من الاحساس بها. وفي نهاية المطاف بلغ بي الأمر حد الريبة المطلقة، وحاولت ان اقنع نفسي بان ذلك لم يكن عديم الفائدة لحبنا وحسب، انما مؤذ ايضاً.

كانت تلك التصرفات تزيدني ريبة، وتلقي ظلالاً من الشك على طبيعة حبها، فقد كنت اتساءل عما إذا كان ما تقوم به ليس سوى مسرحية هزلية كي تتجنب الحب الجسدي بحجة انه مؤذ، بينما هي في واقع الأمر تمقته اصلاً، ولذا فإن متعتها كانت مصطنعة. وبطبيعة الحال، كانت المشاجرات تتعاقب، وكانت المحاولات التي تبذلها لاقناعي تذهب سدى ولم تحقق من ورائها سوى اثاره جنوني بشكوك واهية جديدة، وهكذا كان يبدأ من جديد فصل من الاستجابات اكثر تعقيداً.

وأكثر ما كان يثير حفيظتي ازاء هذا الخداع الذي كنت افترضه، هو استسلامي لها اعزلاً، فاقد الارادة كطفل صغير.

كنت أقول لها حانقاً:

- لو تطرق إلي الشك يوماً بأنك تخدعيني، ساميتك ميتة كلب.

كنت الوي ذراعها واحدق في عينيها، عليّ استطيع ملاحظة اشارة ما، أو بريق شك ما، أو بصيص تهكم ما، ولكنها كانت تنظر إلي، خائفة كأنها طفل، أو حزينه مستسلمة بينما تبدأ في ارتداء ملابسها بصمت.

في احد الأيام تجاوز عنف نقاشنا ما هو مألوف، وبلغ بي الأمر حداً جعلني اصرخ في وجهها: يا عاهرة. ظلت ماريا صامته كأنها مشلولة، ثم ذهبت بصمت وبيضاء لترتدي ثيابها خلف الستار. وعندما هرعت اليها، يتنازعني الحقد والندم، لأطلب منها الصفع، رأيت محياها وقد بللته العبرات فوقفت حائراً، لا أدري ماذا افعل: قبلت عينيها بحنان، تضرعت اليها أن تغفر لي، بكيت أمامها، نعت نفسي بالحيوان المتوحش والظالم والحقود، واستمر الأمر على هذه الحال، بينما

كانت تكسو عيها علامات الاكتئاب، ولكن ما ان هدا روعها وراحت تبتسم بفرح، حتى بدأ يتبين لي ان عدم استمرار الحزن مسيطراً عليها ليس امراً طبيعياً ابداً: كان بوسعها أن تهدأ وتطمئن، ولكن، ان تستسلم للفرح بعد ان صرخت في وجهها بتلك الكلمة، امر مريب جداً. وتراءى لي ان اية امرأة، بما في ذلك العاهرات لا بد وأن تشعر بالمهانة، إذا ما نعتها احد بتلك الصفة، وليس بوسع أية امرأة أن يعاودها الفرح بهذه السرعة، إلا إذا كان نعتها بهذه الصفة ينطوي على شيء من الحقيقة.

فصول متشابهة، كانت تتكرر كل يوم تقريباً. كانت احياناً تؤدي إلى حالة من الهدوء النسبي، نخرج بعدها إلى النزهة في حديقة فرنسا كشابين عاشقين. لكن لحظات الحنوهذه، بدأت تصبح اكثر ندرة وأقل ديمومة، كومضات الشمس المتقطعة في سماء تنذر بالعاصفة وتزداد اكفهراراً. وراحت شكوكي وتساؤلاتي تحرق بكل شيء كنبته متسلقة تتشابك وتخنق اشجار حديقة بنسجها الوحشي.

كانت في صمتها وكلماتها الضائعة وبعض رحلاتها الى المزرعة ومغامراتها العاطفية، تجعل استجوابي لها يزداد تواتراً وتعقيداً يوماً بعد يوم، سألتها ذات مرة لماذا تطلق على نفسها إسم «الآنسة ايريبارني» بدلاً من «السيدة اجندي» فابتسمت وقالت :

- يا لك من طفل! . . وما أهمية ذلك . . ؟

فاجبتها وانا اتفحص عينيها :

- انه ينطوي، بالنسبة لي، على أهمية كبيرة.

قالت بعد أن فارقتها الابتسامة :

- انها عادة من عادات العائلة.

قلت :

- ومع ذلك، عندما اتصلت بالهاتف اول مرة، وسألت عن «الآنسة

ايريبارني»، ترددت الخادمة برهة قبل ان تجيبني.

- لعلك تخيلت ذلك.

- ربما: ولكن لماذا لم تصحح خطأي . . ؟

عادت ماريا تبسم، بملء فيها، ثم قالت :

- لقد قلت لك توأ، إنها احدى عادات العائلة، حتى ان الخادمة تعرف

ذلك ايضاً، والجميع ينادوني «ماريا ايريبارني».

- يبدو لي ان تسميتك «ماريا ايريبارني» امر طبيعي، ولكن ما هو غير

طبيعي، ان تستغرب الخادمة قليلاً جداً عندما ينادونك «... آنسة...».

- آه... لم انتبه إلى ان ذلك يثير دهشتك. حسناً فهو غير مألوف، ولعل

هذا ما يفسر دهشة الخادمة.

واستغرقت في التفكير، كما لو انها تلم بالمشكلة لأول مرة، فالححت قائلاً :

- ومع ذلك ، لم تصحح ما قلته .
فقلت كما لو أنها استردت وعيها :
- من . . . ؟

- الخادمة . . لم تصحح كلمة «الآنسة» .
- لكن ، يا خوان بابلو ، ان ذلك لا يرتدي أية أهمية ، ولا أدري ما الذي
تريد اثباته .

- اريد ان اثبت انها ربما لم تكن المرة الأولى التي تُنادين بها آنسة ، لو أنها
كانت المرة الأولى ، لبادرت الخادمة الى التصحيح .

استغرقت ماريا في الضحك ثم قالت وهي تلامسني بحنان بينما خالط
اساريرها شيء من الفرح :
- انك خيالي حقاً .

حافظت على الجد واستأنفت اقول :

- ثم ، انك عندما اجبت على مكالمتي اول مرة ، كانت نبرة صوتك في البدء
متكلفة كأنها مكتيبة ، وما ان اغلقت الباب حتى استأنفت الحديث بنبرات رقيقة ،
فلماذا هذا التباين . . ؟

- قالت وقد علت محياها امارات الجد :

- ولكن ، كيف تريدني ان اتحدث معك بحضور الخادم يا خوان بابلو . . ؟
- نعم ، هذا معقول ، ولكنك قلت : «عندما اغلق الباب يدركون انه يتعين
عليهم ألا يزعجونني . . » ولا يمكن أن أكون انا المعني بتلك العبارة ، لأنني كنت
اكملك اول مرة ، وكذلك لا يمكن ان يكون المعني هونتر ، إذ بوسعك ان تلتقيه في
المزرعة متى شئت ويبدولي واضحاً ، انه لا بد وان اشخاصاً آخرين يتحدثونك ، أو
كانوا يتحدثون معك أليس كذلك . . ؟

نظرت ماريا إلي بحزن ، فقلت غاضباً :

- كان الأولى بك، ان تجيبني على سؤال، بدلاً من أن ترمقني بنظراتك الحزينة.

- لكن، يا خوان بابلو، ان كل ما تقوله صياني. يكلمني اشخاص آخرون طبعاً: ابناء عم، اصدقاء العائلة، والدتي، ولا أدري من كذلك. .
- ولكن مكالمات من هذا النوع، ليس من الضروري، كما يبدو لي، ان تتم خفية.

قالت غاضبة:

- من سمح لك بالقول اني اتخفى. . ؟
- لا تغضبي، انت بالذات تحدثت في احدى المناسبات - عن المدعو ريتشارد. وهو ليس ابن عم لك، ولا صديق للعائلة. وليس امك.

قالت بعدوبة وقد غلبت على أمرها:

- مسكين ريتشارد.

- مسكين. . ؟. . لماذا؟

- انك تعلم جيداً انه انتحر. وانني اتحمل - إلى حد ما - بعض المسؤولية.

كان يكتب اليّ رسائل رهيبة، لكنني لم أتمكن من مساعدته بأي شيء مسكين. . .
مسكين ريتشارد. . !.

- أود ان تطلعيني على بعض رسائله.

- لماذا؟ والرجل قد مات. .

- ذلك لا يهم. . اود، مع ذلك، ان اطلع عليها.

- لقد احرقتها كلها.

- كان بوسعك ان تقولي منذ البدء انك قمت باحراقها. لكنك قلت لي كما

هي عادتك «لماذا؟» والرجل قد مات. . . ثم. لماذا قمت باحراقها، إن كنت قد فعلت ذلك حقاً. . ؟. لقد اعترفت مرة انك تحتفظين بجميع رسائل الحب،

ورسائل ريتشارد هذا لا بد أن تكون محرقة جداً كي تفعلين بها ما فعلت . . اليس كذلك . . ؟

- لم احرقها لأنها كانت محرقة ، وانما لأنها كانت محزنة . كانت تغمني .

- لماذا كانت تغمك . . ؟

- لا أدري . . . كان ريتشارد رجلاً كئيباً ، كان يشبهك كثيراً . .

- أكنت تحببته . . ؟

- أرجوك . .

- ترجين . . لماذا . . ؟

- لكن لا . . يا خوان بابلو . لديك كل فكرة . .

- انما لا أرى أنها ليست معقولة . . يعشقك ، يكتب لك رسائل رهيبة

تفضلين احراقها ، يتحرر ، وتعتقدين ان افكاري ليست معقولة . . لماذا . . ؟

- لأنني رغم كل ذلك لم أقع في حبه قط .

- ولم لا . . . ؟

- لا أدري حقاً . ربما لأنه لم يكن من النوع الذي يروق لي .

- قلت انه كان يشبهني كثيراً .

- يا إلهي . . كنت اعني انه يشبهك بشكل ما ، ولكن لم أقل انه كان مثلك

تماماً . كان إنساناً عاجزاً عن ابتداع أي شيء ، كان هداماً ، وكان ذكاًؤه قاتلاً ،

كان عديمياً . شيء من هذا شبيهه بالجانب السلبي من شخصيتك .

- حسناً ، لكنني ما زلت لا أدرك بعد ، ما ضرورة حرق الرسائل .

- أو كد لك انني حرقتها لأنها كانت تغمني .

- لكن ، كان بوسعك أن تحفظيها وألا تقرأيها . في هذا ما يبرهن على أنك

ثابرت على قراءتها إلى ان قمت بحرقها ، وإن كنت قد كررت قراءتها ، فلا بد ان

يكون وراء ذلك امر ما كان من شأنه ان يجذبك اليه .

- أنا لم أقل انه لم يكن يجذبني .

- قلت انه لم يكن من النوع الذي يروق لك .

- يا إلهي . . يا إلهي . . الموت أيضاً لا يروق لي ، ومع ذلك ، كثيراً ما

يجذبني . كان ريتشارد يجذبني مثلما يجذبني الموت أو العدم . ولكن ينبغي على المرء ، كما اعتقد الا يستسلم إلى هذه المشاعر بسهولة . ولعلي لهذا لم أحبه ، ولذلك حرقت رسائله . عندما مات قررت تدمير كل ما كان يمثل استطلاات وجوده .

كانت في غاية الحزن ، ولم اتمكن من انتزاع أية كلمة أخرى عن ريتشارد ، لكن يتعين علي ان اضيف ، ان ذلك الرجل الذي توصلت في نهاية الأمر ، إلى معرفة الكثير ، عنه ، لم يكن هو أكثر من يعذبني ، وانما تلك الشخصيات المجهولة والأشباح التي لم تأت على ذكرها قط ، والتي كنت ، مع ذلك ، أحس بها تتحرك في ظلمة حياتها خلسة . كنت اتصور اسوأ خصال ماريا مقرونة بتلك الاشباح المجهولة . كلمة واحدة انزلت من بين شفتيها في لحظة من لحظات المتعة الجسدية ، عذبتني وما زالت ، حتى اليوم ، تعذبني .

لكن ، من بين جميع تلك الاستجابات المعقدة ، كان هناك استجواب واحد فقط القى ضوءاً مريعاً على ماريا وعلى حبها .

أما وان ماريا قد تزوجت اجندي ، فأمر منطقي طبعاً ، ان يفكر المرء بأنها لا محالة كانت تكن ذات حين ، شعوراً ما نحو هذا الرجل ، ولا بد لي من القول أن هذه المشكلة التي يمكن ان نطلق عليها «معضلة اجندي» كانت احد اكثر الهواجس هيمنة على تفكيري . كانت الألغاز التي رغبت في الكشف عنها كثيرة ، إلا أن أكثرها إلحاحاً كان معرفة ما يلي :

هل كانت في يوم من الأيام تحبه . . . ؟ . . . وهل لا زالت تحبه . . . ؟ لم يكن تناول هذين السؤالين بصورة منعزلة ممكناً ، إذ كانا متصلين بأسئلة أخرى : فإن لم تكن تحب اجندي . من كانت تحب اذن . . . ؟ . . . أنا . . . ؟ . . . هونتر . . . ؟ . . . احدى تلك الشخصيات الغامضة التي كانت تتحدث معها بالهاتف ؟ أم لعلها كانت تحب مخلوقات شتى بأساليب مختلفة ، كما يفعل بعض الرجال . . . ؟ . . . إنما من الجائز أيضاً أنها لم تكن تحب أحداً ، وكانت تقول لكل منا ، نحن الشياطين الصبية الصغار ، إنه حبها الوحيد وإن الآخرين مجرد اشباح ، أو مخلوقات تجمعها بهم علاقات سطحية أو ظاهرية وحسب .

قررت ذات يوم ان ازيح الستار عن «معضلة اجندي» فسألته لماذا تزوجته فأجابت :

- كنت احبه .

قلت :

- إذن انت لا تحبينه الآن .

- أنا لم أقل انني لم أعد احبه .

- قلت «كنت احبه» ولم تقولي «احبه» .

فاحتجت قائلة :

- انك دائماً تجعل من التلاعب بالألفاظ قضايا ، وتحرف كل شيء بشكل لا

يصدق . عندما قلت اني تزوجته لأنني كنت أحبه ، لم أكن أعني اني لا أحبه الآن .
قلت بغتة ، وكما لو أني وددت أن اوقع بها ، لأجدها متلبسة تناقض أقوالاً
ادلت بها في استجابات سابقة .

- آه ، إذن تحببته .

صمتت . ويدت مغلوبة على امرها ، فسألتها :

- لماذا لا تحببين . . ؟

- لأنني لا أرى فائدة ترجى من ذلك . لقد كررنا هذا الحوار بصورة تكاد
تكون متطابقة مرات عديدة .

- لا ، انه ليس كالمرات السابقة . لقد سألتك ان كنت تحبين اجيندي الآن ،
وقلت لي نعم ، واظنني اذكرك انك في مناسبة اخرى قلت لي في المرفأ ان اول انسان
تحببته هو انا .

عادت ماريا تلوذ بالصمت ، ما يثير حنقي لم يكن تناقضاتها وحسب بل ، ما
كان يتطلبه من جهد ، انتزاع أي تصريح منها ، أيضاً .

لكنني عدت استنطقها :

- بماذا تحببين على ذلك . . ؟

فبدت منهكة وهي تقول :

- يمكن للمرء ان يعشق ويحب بطرق متعددة . ولك ان تتصور ، انه لا

يمكنني ان اثابر على حب اجيندي الآن ، كما كنت أحبه منذ سنوات خلت ،
عندما تزوجنا .

- باية طريقة تحببته اذن . . ؟

- باية طريقة . . ؟ . . انت تعرف ما أعني .

- أنا لا أعرف شيئاً .

- لقد قلت لك مرات عديدة .

- نعم ، قلت لي ، لكن لم توضحي أبداً .

صاحت بمرارة :

- أوضح . . . ! . انت قلت آلاف المرات ، ان ثمة اموراً كثيرة لا تقبل الايضاح ، وتريدني الآن ان اوضح امراً بالغ التعقيد كهذا . لقد قلت لك ألف مرة ، ان اجيندي رفيق عظيم ، احبه كأخ ، وأرعاه ، وأكنّ له عطفاً كبيراً ، واعجب اعجاباً شديداً بصفاء سريرته ، واخاله اسمي مني بكل ما في الكلمة من معنى ، واشعر معه بأنني حقيرة ومذنبه فكيف يمكن لك ان تتصور اذن اني لا أحبه .

- لست أنا الذي قال انك لا تحبينه . انت قلت لي ان حبك له الآن ليس كما كان عندما تزوجت . لعله يتعين علي ان استنتج ، انك عندما تزوجت كنت تحبينه ، مثلما تزعمين أنك تحبيني الآن . ولكنك ، من جهة أخرى ، قلت لي في المرفأ منذ أيام انني أول إنسان أحبته حباً حقيقياً .

نظرت ماريا إلي بحزن ، لكنني استطردت أقول :

- حسناً ، لنترك هذا التناقض جانباً ، ولنعد إلى اجيندي ، تقولين انك تحبينه كأخ ، وأريد منك ان تحبيني على سؤال واحد فقط . . اتضاجعينه . . ؟ رمقتني بنظرة ابلغ حزناً ، ظلت صامته برهة ، ثم سألتني بصوت مفعم بالآلم :

- أمن الضرورة بمكان أن أجيب على هذا السؤال أيضاً . . . ؟

فقلت لها بقسوة :

- نعم ، لا شك انه من الضروري جداً .

- يبدو لي ان استجابتي بهذا الأسلوب ، بشع جداً .

- الأمر في غاية البساطة ، يتعين عليك أن تقولي : نعم أو لا .

- الجواب ليس بهذه البساطة : يمكن ان أجيب ، ويمكن ألا أجيب ايضاً .

فقلت ببرود :

- حسناً ، هذا يعني نعم .

- حسناً، نعم .

- إذن انت تشتهيئه .

قلت ذلك وأنا اتفحص عينيها بنية الكشف عن أمر آخر، إذ إن هذا التأكيد كان ناجعاً، لانتزع منها سلسلة من النتائج . لم اكن اعتقد فعلاً أنها تشتهيئه (وان كان مزاج ماريّا يجعل من ذلك امراً ممكناً)، بل كنت اود ارغامها على تفسير مسألة «العطف الاخوي» تلك . وكما توقعت فقد ترددت قبل ان تجيب، ومن المؤكد انها كانت تفكر بالكلمات ملياً عندما قالت بعد لأي :

- قلت، اني اضاجعه، ولم أقل اني اشتهيئه .

فصرخت بنشوة المنتصر:

- آه . . . ! هذا يعني انك تقومين بمضاجعته بلا رغبة، ولكنك تجعلينه يعتقد أنك تشتهيئه . . . !

اكتسى وجه ماريّا بالشحوب، وراحت الدموع تتساقط على وجنتيها بصمت . وكانت نظرتها كسيرة كقطعة زجاج محطمة .

ثم تمت ببطء :

- أنا لم أقل ذلك .

لكني استطردت بلا رحمة :

- ان الأمر واضح . لودلت على أنك لا تشعرين بشيء، وانك لا تشتهيئه، ولو انك دللت على ان العلاقة الجنسية، ما هي إلا تضحية تبذلونها تكريماً لعطفه ولاعجابك بسموه الروحي، وما إلى ذلك . . . لما عاد اجيندي إلى مضاجعتك ابداً . وبعبارة اخرى : ان مجرد مواظبتك على مضاجعته، يبرهن على انك اهل لخداعه، ليس فيما يتعلق بعواطفك نحوه وحسب، وانما حتى باحاسيسك أيضاً . فانت اهل لتقليد مشاعر اللذة باتقان .

كانت ماريّا تبكي بصمت وهي تنظر إلى الأرض . ثم استجمعت قواها

وقالت :

- انك في منتهى القسوة .

قلت :

- لندع الاعتبار الشكلية جانباً : يهمني الجوهر . وجوهر الأمر هو أنك اهل لخداع زوجك خلال سنوات ، ليس فيما يتعلق بعواطفك نحوه وحسب ، انما تخدعينه باحاسيسك ايضاً . هذه النتيجة يمكن ان يتوصل اليها أي كان . فما الذي يحول دون ان تخدعيني أنا ايضاً . . ؟ . . سوف تدركين الآن لماذا قمت مراراً بتقصي حقيقة مشاعرك نحوي . اني اذكر دائماً ، كيف حذر والد ديدمونه ، عطيل بقوله : « ان امرأة تخدع والدها ، يمكنها ان تخدع رجلاً آخر . . » وبالنسبة لي ، ما من قوة يمكنها ان تنتزع من رأسي انك كنت خلال سنوات تخدعين اجيندي باستمرار .

وشعرت للحظات ، بالرغبة في ان اجعل قسوتي تصل إلى أقصى مداها ، ورغم اني كنت أدرك ابتذال وبذاءة ما كنت أقول ، اضفت :
نك تخدعين اعمى .

كنت، قبل ان انطق بتلك العبارة، أشعر بشيء من الندم . ففي أعماق المخلوق الذي ابتغى من النطق بها ارضاء نزعة مترعة بالشر، ثمت شخص آخر اكثر نقاءً وأشد حناناً، كان، في الوقت الذي بدأت فيه قسوة تلك العبارة تفعل فعلها، مستعداً يتحفز، ولقد انحاز، بصورة ما، يتعاطف مع ماريّا بصمت، قبل ان انطق بتلك الكلمات التافهة الحمقاء، (ماذا كنت في الواقع سأجني من ورائها . ؟)، إذ ما أن بدأت تلك الكلمات تخرج من بين شفتي، حتى سمعها ذلك الشخص الآخر الكامن في أعماقي مذهولاً كأنه لا يصدق ان بمقدوري ان اتفوه بها حقاً . وبقدر ما كانت تتسرب من فمي كان يشدد هيمنته على وعيي وارادتي، وكاد ان يتوصل في الوقت المناسب، إلى الحيلولة دون النطق بها كاملة . وما ان انهيت من نطقها (لأنني، رغم كل ذلك تفوهت بها كاملة) حتى كان يمتلك زمامي تماماً، ويأمرني بأن أقف ذليلاً أمام ماريّا، اطلب منها الصفع واعترف ببلادتي وقسوتي . بشئ هذا الانفصام اللعين في وعيي كم كان مسؤولاً عما ارتكبته من أعمال شنيعة ! فبينما يحملني جانب على اتخاذ موقف رائع نبيل، يكشف الجانب الآخر عن الخداع والنفاق والزيف، وفي حين يذهب بي جانب إلى حد التشهير بمخلوق بشري، يشفق الجانب الآخر على هذا المخلوق، ويرميني أنا بالذات بما اتهم الآخرين به، وفي الوقت الذي يريني فيه جانب جمال العالم، يشير الجانب الآخر إلى بشاعته، وإلى تفاهة كل مشاعر السعادة . لقد فات الأوان، على كل حال، لتضميد الجرح المفتوح في نفس ماريّا (كان الأنا الآخر الغارق في كهف تغمره القذارة يؤكد لي ذلك بتشفي وحقد وانسراح) لقد أصبح الوقت متأخراً جداً .

انكفأت ماريّا صامتة يملكها عياء مطلق، بينما راحت نظراتها (كم كنت أعرفها . . . !) تزيع الجسر المتحرك، الذي كان يمتد بين روحينا أحياناً، لتصبح

نظرة قاسية لعينين لا يدرك كنههما . وسرعان ما أدركت أن ذلك الجسر قد ازيح إلى الأبد ، فلم اتردد ، وأنا في غمرة يأسى المفاجيء ، في ان استسلم إلى أقسى انواع الإذلال : كأن أقبل قدميها مثلاً . لكنني لم أنل منها سوى نظرة شفقة ، ثم بدأت عيناها تلين للحظة رافة بحالي ، إنها ، بشفقة ولا شيء غير الشفقة .

وحيثما كانت تغادر المرسوم ، وهي تؤكد من جديد ، أنها لا تكن لي الحق . ارتفعت منهاراً فاقد الارادة ، بقيت شارد الذهن ، ذاهل النظرات حيناً ، ثم ادركت فجأة انه يتعين علي أن أقوم بانجاز سلسلة من الأعمال .

خرجت إلى الشارع مسرعاً ، إلا أن ماريا كانت قد توارت عن الأنظار ولم أعثر لها على أثر . استأجرت سيارة وانطلقت إلى منزلها ، وتصورت أنها لن تذهب إلى هناك مباشرة ولذا كنت آمل أن التقى بها حين وصولها . وانتظرت أكثر من ساعة عبثاً . اتصلت هاتفياً بمنزلها من احد المقاهي ، فقبل لي إنها لم تعد منذ أن خرجت عند الساعة الرابعة (أي ساعة ذهابها إلى مرسى) . انتظرت عدة ساعات أخرى ، ثم اتصلت بالهاتف ثانية ، قبل لي إنها لن تعود إلى المنزل قبل حلول الليل .

من شدة قنوطي ، ذهبت لأبحث عنها في كل الأماكن التي كنا نلتقي فيها أو نرتادها عادة : في حدائق لاريكوليتا ، في شارع سينتيناريو ، في حديقة فرنسا في المرفأ الجديد . فلم أعثر لها على أثر . وادركت انها قد تذهب إلى أي مكان ، ما خلا الأماكن التي تذكرها بأحلى اللحظات التي كنا نقضيها معاً . اسرعت إلى منزلها ، وكان الوقت متأخراً جداً ، وتوقعت أن تكون قد عادت . تحدثت بالهاتف ، وكانت قد عادت فعلاً لكن قبل لي إنها في سريرها ويتعذر عليها أن ترد . فافصحت عن اسمي وحسب .

ان شيئاً ما بيننا كان قد انقطع .

عدت إلى منزلي يتملكني شعور بوحدة مطلقة .

واحساسي بأنني وحيد في هذا العالم ، غالباً ما يظهر مختلطاً بشعور من كبرياء التفوق : فاحتقر الناس ، واخافهم قذرين وبشعين وعاجزين وجشعين وقساء وانذال . ان وحدتي لا تخيفني ، وانما تكاد تكون ميدان كبريائي . ولكنني في تلك اللحظة ، كما في لحظات اخرى مماثلة ، كنت أحس ان وحدتي ليست سوى ثمرة اسوأ خصالي ، واحط تصرفاتي . كنت في مثل تلك الحالة اشعر أن العالم لا يستحق إلا الاحتقار ، ولكن ما ان ادرك اني جزء منه حتى تستولي على همى الفناء فاستسلم لمداعبات الاغراء بالانتحار ، واثمل ، واطارد العاهرات واشعر بشيء من الارتياح في اختبار نذالتي ، وفي تأكيد اني لست أفضل من الوحوش القذرة التي تحيط بي .

في تلك الليلة ، شربت في حانة من حانات حي «الباخو» حتى ثملت . كنت في اسوأ حالات السكر عندما شعرت باشمئزاز شديد من المرأة التي كانت ترافقني ، ومن البحارة الذين كانوا يحيطون بي ، فخرجت مسرعاً . سرت في شارع فيامونتي وانحدرت حتى أرصفة الميناء . جلست هناك وبكيت ، كانت المياه القذرة من تحتي تغويني باستمرار . علام العذاب . . ؟ الانتحار يغري نظراً لقدرته على الافناء بسهولة : في ثانية واحدة ينهار هذا العالم السخيف كعملاق زائف ، كما لو ان رسوخ ناطحات سحابه وصلابة مدرعته وقوة مصفحاته ، ومناعة سجنونه لم تكن سوى وهماً وليست أكثر رسوخاً من شواهد ومصفحات ومدرعات وسجون حلم مزعج . تبدو الحياة في ضوء هذا الفهم كابوساً طويلاً ، يمكن الانعتاق منه بالموت ، الذي قد يكون نوعاً من اليقظة . يقظة ، ولكن على أي شيء . . ؟ هذا اللا حل بالارتقاء في العدم المطلق والابدي ، كان يصرفني عن جميع مشاريع الانتحار . ومع

ذلك فان تشبث المرء الشديد بالحياة، يؤدي به قبل ان يقوم بالقضاء على الوهم بمحض ارادته، إلى أن يفضل، في نهاية الأمر، تحمل ما فيها من نقص وعيوب وما ينجم عن بشاعتها من آلام. ويحدث عادة، عندما نصل إلى حافة اليأس التي تسبق الانتحار، بعد تراكم المساوىء إلى الحد الذي يفوق قدرتنا على الاحتمال، ان اية بارقة خير، مهما كانت ضئيلة تكتسب قيمة لا حدود لها، وتصبح عنصراً حاسماً نتمسك به، كما نقبض بيأس على أية قشة أمام خطر الانزلاق إلى هاوية. عندما قررت العودة إلى المنزل كان بزوغ الفجر وشيكاً. لا اذكر كيف وجدتني أمام منزل اجيندي، رغم قراري بالعودة (الذي اذكره تماماً). والغريب انني لا اذكر ما تخلل ذلك من حوادث. كنت جالساً على رصيف المرفأ، انظر إلى المياه القذرة وافكر، (يجب علي أن أنام الآن)، ثم، وجدتني أمام منزل اجيندي اتطلع إلى الطابق الخامس. لم كنت اتطلع.؟ من العبث ان اتصور انني يمكن ان اراها في تلك الساعة. مكثت وقتاً طويلاً وأنا في حالة ذهول، حتى خطرت لي فكرة: ذهبت أبحث عن مقهى. اتصلت بمنزها هاتفياً ولم أفكر ماذا كان يترتب علي ان أقول لتبرير قيامي بذلك في مثل تلك الساعة. مضت حوالي خمس دقائق، وجرس الهاتف يرن، وعندما سمعت صوتها يرد علي وقفت كالمشلول لا أتفوه بأية كلمة. علقت الساعة مذعوراً، وغادرت المقهى، أسير على غير هدى. ولكن سرعان ما وجدتني أعود ثانية. وكى لا استرعي الانظار، طلبت كأساً من الخمرة، ثم قررت العودة إلى المنزل.

وجدتني بعد مضي وقت طويل جداً، في الرسم، فارتميت بملابسي فوق السرير ونمت.

استيقظت فوجدتني أحاول الصراخ وأنا أقف وسط المرسوم، رأيت في الحلم انه كان يتعين علي أن أذهب مع عدة اشخاص، إلى منزل سيد كنا معه على موعد. عندما وصلت المنزل بدا لي من الخارج كأي منزل آخر، ولما دخلت، سرعان ما تأكدت انه لم يكن كذلك، بل يختلف عن سواه، بادرني صاحبه القول:

- كنت انتظرك.

خالجني شعور بأنني وقعت في مأزق، وارت ان اهرب. بذلت جهداً هائلاً، لكن بعد فوات الأوان: احسست أن جسمي لم يعد يطاوعني فاستسلمت لاشاهد ما سيحدث وكأن الأمر لا يعني، بدأ ذلك الرجل بمسخي طيراً، طيراً بحجم انسان. ابتداءً برجلي: ورأيت كيف كانت تستحيل شيئاً فشيئاً إلى قائمتي ديك أو ما شابه ذلك. ثم تابريمسح جميع اجزاء جسمي صعوداً مثلما يرتفع الماء وهو يملأ صهريجاً. كان أملي الوحيد عندئذٍ معلقاً على أصدقائي الذين تأخروا في الوصول بلا مبرر. عندما دخلوا، حدث ما ملأني رعباً: لم يلاحظوا اني تحولت إلى طير وعاملوني كعهدي بهم، مما يدل على أنهم كانوا يروني كما كنت من قبل. فكرت أن الساحر قد استولى على عقولهم، مما جعلهم يروني كإنسان عادي، لذا قررت ان اتطرق إلى ما فعله بي. ومع ان مبتغاي كان استرعاء الانتباه إلى الظاهرة العجيبة بكل هدوء، وتلافي تعقد الأمور واثارة الساحر، وما قد ينجم عن ذلك من ردود فعل عنيفة (تجره إلى القيام بما هو اسوأ)، بدأت اروي ما حدث بصوت مرتفع. لكنني لاحظت أمرين عجيبين: فالجملة التي اردت أن ألقظها، تحولت عند خروجها من فمي إلى نقيق طائر أجش الصوت، نقيق يائس غريب، لعله كان كذلك بسبب انطوائه على عنصر انساني، وما كان اسوأ من ذلك، ان اصدقائي لم يسمعوا ذاك النقيق، مثلما لم يروا من قبل جسمي وقد تحول إلى طائر

كبير، بل كان الأمر عكس ذلك تماماً، إذ بدا لي أنهم يسمعون صوتي المألوف، أقول أشياء مألوفة، ولم تبدر منهم في أية لحظة أدنى بادرة استغراب، لذت بالصمت مذعوراً، ونظر إلي صاحب المنزل وعيناه تلمعان ببريق ساخر خفي لم يلاحظه على أي حال سواي. وادركت عندئذ أن أحداً لن يعرف البتة أنني مسخت طيراً. كان يلفني ضياع أبدي، واحساس بأن ذلك السر سيرا فني إلى القبر.

عندما استيقظت، وجدتي، كما قلت، اقف وسط الغرفة، يغمرني حمام من العرق البارد.

كانت الساعة تشير إلى العاشرة صباحاً. هرعت إلى الهاتف، فقبل لي إنها ذهبت إلى المزرعة. اصابني الذهول. بقيت مستلقياً على السرير وقتاً طويلاً، ولم استقر على امر حتى قررت ان اكتب اليها رسالة.

لا أتذكر الآن تماماً، التعبير التي استعملتها في تلك الرسالة التي كانت طويلة جداً. انها اتذكر على وجه التقريب اني طلبت منها الصفح، وقلت اني لست سوى نفاية، ولا استحق حبها، وانه محكوم علي بحق أن أموت في عزلة مطلقة.

مرت علي أيام فظيعة من دون ان أتلقى منها جواباً. فبعثت اليها برسالة ثانية، ثم الحققتها بثالثة، فرابعة اكرر فيها الكلام ذاته. لكن كآبتي كانت في كل رسالة اشد من سابقتها. في الرسالة الأخيرة قررت أن أروي كل ما حدث تلك الليلة التي تلت افتراقنا. لم أوفر واقعة مهما كانت صغيرة، ولا حقارة من حقاراتي الكثيرة، كما لم يفتني ان اعترف لها بمحاولة الانتحار. لقد خجلت من ان استعمل ذلك كسلاح، لكنني فعلت. ولا بد لي من أن أذكر ايضاً، انني بينما كنت أصف لها تصرفاتي الوضيعة، ويأسي في وحدتي وأنا اقف تلك الليلة امام منزلها في شارع بوساداس، شعرت بعطف وحنان نحو نفسي، وحتى اني بكيت ورثيت لحالي. كنت اعلق املاً كبيراً على أن تشعر ماريا بمشاعر مماثلة عند قراءة الرسالة، وانطلاقاً من هذا الأمل، غمرني فرح بالغ. وعندما أودعت الرسالة بالبريد المضمون، كنت بصراحة، متفائلاً.

مع عودة البريد، وصلتني من ماريا رسالة تفيض رقة. شعرت ان بعضاً من حبنا الأول ينبعث ثانية، وإن لم يكن بروعة شفافيته الأصلية وإنما ببعض

خصائصه الجوهرية على الأقل . . هكذا كملك . فالملك هو ملك دائماً حتى وإن
غدر به بعض الرعايا من رعاياه الجاحدين الخونة وقاموا بتمريره في الوحل .
كانت تريدني أن أذهب إلى المزرعة ، فرحت أحضر حقيبة ملابسني
وصندوق أدوات الرسم كالمجنون . وانطلقت مسرعاً إلى محطة «كونستيتوسيون» .

محطة اجيندي هي كغيرها من محطات القطارات الريفية، جهرة صغيرة من القرويين هناك، ورئيس محطة يرتدي قميصاً صيفياً، وعربة خيل هنا، وبعض أواني الحليب . .

أثار حفيظتي امران : غياب ماريا من جهة، وحضور السائق من جهة ثانية .
ما ان هبطت من القطار، حتى اقترب مني وسأل :
- هل أنت السيد كاستيل . . ؟

اجبته بهدوء :

- كلا، لست السيد كاستيل .

وخطر لي تواء، أنه سيكون من الصعب ان انتظر في المحطة حتى عودة القطار، فقد يتأخر نصف يوم، أو ما يقارب ذلك . قررت على مضض، التعريف بنفسي، فاضفت أقول في الحال تقريباً :

- نعم أنا السيد كاستيل .

نظر إلي السائق بدهشة فسلمته حقيبتني وصندوقني . وسرنا سوياً حتى بلغنا موقف السيارة . قال الرجل :

- لقد المت بالسيدة ماريا وعكة .

فتمتمت متهكماً :

«وعكه . . . !» . . كم كنت اعرف هذه الحيل . . ! . ثم خطرت ببالي من جديد فكرة العودة إلى بوينس ايرس، انما كان لا بد لي الآن، إلى جانب مسألة انتظار القطار، من اقناع السائق، اني لست السيد كاستيل، او اقناعه، على الأقل، بأنني وان كنت السيد كاستيل، لكني لست مجنوناً . وفكرت في شتى الاحتمالات المتاحة لي بسرعة، وتوصلت إلى انه قد يكون من الصعب في مختلف الأحوال، إقناع السائق بأنني لست السيد كاستيل، او اقناعه، على الأقل، بأنني

وان كنت السيد كاستيل ، لكني لست مجنوناً . وفكرت في شتى الاحتمالات المتاحة لي بسرعة ، وتوصلت الى انه قد يكون من الصعب في مختلف الأحوال ، اقناع السائق ، فقررت الاستسلام ، والمضي إلى المزرعة . ولكن ماذا يمكن أن يحدث لو انني رجعت . . ؟ كان من السهل أن اتوقع ما يمكن ان يحدث ، لأن الأمر لن يخرج عن كونه تكراراً لمواقف سابقة كثيرة : سيستولي علي الغضب وسيتزايد لأنني لن اتمكن من صب جامه على ماريما ، سأتألم كثيراً بسبب فراقها . ولن اتمكن من القيام بعملتي ، وكل ذلك تكريراً لمجرد افتراض التنكيل بها . أقول افتراض ، لأنني لم اتمكن أبداً من اثبات ان هذا الاسلوب في الانتقام يؤدي إلى التنكيل بماريما .

في هونتر بعض الشبه من اجندي ، (واظني سبق وذكرت انها ابنا عم . .) كان طويل القامة ، اسمر البشرة ، نحيل الجسم ، زائغ النظرات . قلت في دخيلتي : « هذا الرجل بلا نخوة ومنافق » . واشاع هذا الخاطر الفرح في نفسي (او ، هكذا على الأقل ، اعتقدت في تلك اللحظة) .

استقبلني وهو يجاملني بصورة تثير الازدراء ، وعرفني على امرأة نحيلة الجسم ، تدخن بمشرب مفرط في الطول ، ذات لكنه باريسية ، تدعى ميمي اجيندي ، كانت شريرة ، حسيرة البصر .

ولكن يا للشيطان . . ! . . اين ماريما . . ؟ اهي متوعدة حقاً . . ؟ كدت من شدة اشتياقي ، انسى وجود اولئك من حولي ، ولكن ما ان تذكرت موقعي ، حتى استدردت فجأة نحو هونتر ، لأراقب حركاته ، وهذه طريقة تعطي أفضل النتائج مع اناس على هذه الشاكلة .

كان هونتر يرمقني بنظرة من عينين ساخرتين سرعان ما حاول اخفاءها وقال :

- لقد ألت بماريما وعكة ولزمت الفراش . ولكن ، اظن انها ستنزل حالاً .
لعنت نفسي ، لأنني شردت : كان لا بد لي من استمرار الحذر مع هؤلاء الناس . كنت اقصد جازماً أن احصي عليهم ، طرق تفكيرهم ، ودعاباتهم ،

وردود فعلهم ومشاعرهم : كان لي في كل ذلك عظيم فائدة فيما يخص علاقتي مع ماريما . أعددت نفسي لأستمع وأرى وحاولت أن أقوم بذلك وأنا على خير ما يرام . وعدت افكر بان المظهر العام لنفاق هونتر والنحيلة كان يثلج صدري . ومع ذلك كنت أشعر بالاكثاب .

نظرت إلى حسيرة البصر وقد زمت غيبتها كأنها تواجه زوبعة من الغبار . ولا شك ان سبب ذلك يعود إلى عزوفها عن استعمال نظارتها (وكما لو انها بالنظارة تبدو اشد قبحاً) وقد اضفى ذلك على ملاحظها مزيداً من الوقاحة والنفاق .
قالت :

- هكذا ، انت فنان اذن .

وعلى الرغم من أني كنت متأكداً أنها انسة قلت بغيظ :

- نعم يا سيده .

وتدخل هونتر قائلاً :

- كاستيل فنان عظيم .

ثم أضاف ، على سبيل الإطراء سلسلة من الحماقات ، مردداً تلك التفاهات التي كان النقاد يكتبونها عني كلما اقامت معرضاً للرسم . مثل : «فنان متين» وما إلى ذلك . . . ولا انكر انه في اتيانه على ذلك ، كان يكشف عن شيء من روح الدعابة . ورأيت ميمي وقد عادت تتفحصني بعينها المزمومتين فاضطربت ظناً مني أنها كانت ستسال مني بشيء . وإن كنت لأعرفها حق المعرفة .
سألني وكأنها تمتحني :

- أي الرسامين تفضل . . ؟

لا . . . الآن تذكرت . طرحنا هذا السؤال بعد ان نزلنا . إذ ما ان عرفني هونتر على تلك المرأة التي كانت تجلس في الحديقة قرب طاولة وضعت عليها ادوات الشاي ، حتى قادني إلى الداخل . إلى الغرفة التي خصصوها لي ، واثناء صعودنا (كانت الدار مؤلفة من طبقتين) ، راح يشرح لي انها ، فيما عدا بعض

التحسينات، لا زالت على حالها، كما كان قد بناها جده، على انقاض بيت قديم في مزرعة والده، وكنت اسائل نفسي «وانا، ماذا يهمني من كل ذلك . . ؟» من الواضح أن الرجل كان يود التظاهر بالتواضع والصراحة بيد اني أجهل مبتغاه من ذلك. وبينما كان يتحدث عن أمر يتعلق بساعة شمسية، او شيء يتعلق بالشمس، كنت منصرفاً عنه أفكر ان ماريا قد تكون هناك في احدى الغرف العلوية. ولعل هونتر لمح نظراتي المتفحصة فقال:

- توجد هنا عدة غرف للنوم، والدار مريحة فعلاً، ولو ان طراز بنائها طريف، تذكرت أن هونتر كان مهندساً. وكان لا بد من معرفة ما يمكن أن يعنيه بالبناء غير الطريف.

تابع حديثه وهو يشير إلى غرفة في الوسط، مقابل السلم:

- هذه حجرة نوم جدي القديمة، اشغلها انا الآن.

ثم فتح باب غرفة نوم اخرى وقال:

- هذه هي غرفتك.

تركني وحدي في الغرفة وقال انه سينتظري في الحديقة لتناول الشاي. وما ان وجدتني وحدي حتى بدأ قلبي يخفق بعنف فقد فكرت ان ماريا يمكن ان تكون في أي من غرف النوم تلك، وربما في الغرفة المجاورة. وفيما كنت أقف وسط الغرفة لا أدري ماذا أفعل خطرت ببالي فكرة، فاقتربت من الجدار المشترك مع الغرفة الاخرى (التي لا تعود لهونتر) وطرقته بقبضتي طرقات خفيفاً، وانتظرت رداً، لكن احداً لم يجب. وخرجت إلى الممر لا تأكد ان احداً لم يكن هناك، وبينما كنت اشعر باضطراب شديد اقتربت من باب الغرفة المجاورة ورفعت يدي لا طرق عليه لكنني لم اجرؤ، وعدت إلى غرفتي مسرعاً. ثم قررت النزول إلى الحديقة. كنت مشتت الفكر تماماً.

كنا نجلس حول الطاولة، عندما سألتني النحيلة أي الرسامين أفضل.
ذكرت ببلادة بعض الاسماء مثل: فان كوخ، الغريكو. فنظرت إلي بازدراء وكأنها
تخاطب نفسها:

- هه، أنا لا أعجبني كبار العظماء.

ثم توجهت بالكلام إلى هونتر:

- أقول لك بصراحة، إن هذه العينات من امثال ميكيل انجل، او الغريكو
تزعجني. تباً للمأساوية والعظمة ما اشد عدوانيتها...! ألا تعتقد أنها تنطويان
على شيء من نقص التهذيب...؟ اني اعتقد أنه يجب على الفنان ان يلتزم حدود
عدم استرعاء الأنظار دوماً، يثير سخطي الإفراط في المأساوية والأصالة. تصور، إن
كون الكاتب مبدع اصيل يعني بصورة ما، أنه يقوم بالكشف عن عجز الآخرين،
مما ينم، كما يبدو لي، عن ذوق مشكوك فيه جداً. أظني لو مارست الرسم أو
الكتابة، لما قدمت إنتاجاً مثيراً يسترعي الانظار أبداً.

قال هونتر بخبث:

- لا أشك في ذلك.

ثم أضاف:

- إني واثق أنه لا يطيب لك كتابة رواية مثل رواية الأخوة «كارامازوف» مثلاً.

فصاحت ميمي بالفرنسية، وهي ترنون نحو السماء:

- يا للهول...!

ثم تابعت تشرح رأيها وهي تزج في حديثها بعض الكلمات الفرنسية:

- يبدو أنهم حديثو النعمة بالوعي، بمن فيهم ذلك الكاهن... ما... ما...

اسمه...؟... آه، «زوزيم».

- ميمي... لماذا لا تقولي سوسيمو، كما ننطقها بالاسبانية...؟ إلا إذا

كنت مصممة على لفظها بالروسية، فهذا امر آخر.

- ها قد بدأت بحماقاتك حول قواعد اللغة. لا شك انك تعلم أن الأسماء الروسية يمكن أن تلفظ بطرق مختلفة، كما كان يقول ذلك الممثل في احدى المسرحيات: «تولستوي... أو، تولستوا... الوجهان صحيحان، بل يجب أن يكونا كذلك».

قال هونتر:

- لهذا السبب اذن، يضعون اشارة تشديد على الياء في اسم تولستوي، كما لاحظت في ترجمة منقولة من الروسية مباشرة (حسب ادعاء دار النشر)، فرغت توأ من قراءتها.

فصاحت ميمي فرحة:

- آه... هذه الأشياء تسحرني. قرأت ذات مرة، ترجمة فرنسية لتشيكوف، كنت تجد فيها كلمة مثل - ايتشفوتشنيك - (أو ما شابه ذلك) وإلى جانبها اشارة. ترجع إلى اسفل الصفحة فتجد معناها، وليكن مثلاً كلمة «حمال»، فتصور، إن احدنا لا يفهم والحالة هذه، لماذا لا يستخدمون الاسلوب نفسه. ويضعون بالروسية كلمات مثل «بالرغم من أن» أو «قبل». اليس كذلك...؟ أقول لك بصراحة، ان اعمال المترجمين هذه تسحرني وعلى الأخص، عندما يتعلق الأمر برواية روسية. هل تتحمل سيادتك رواية روسية...؟

طرحت علي هذا السؤال على حين غرة، لكنها لم تنتظر جواباً، بل اردفت تقول وهي تنظر إلى هونتر ثانية:

- تصور اني لم أتمكن من اتمام قراءة أية رواية روسية ابداً. انها متعبة جداً... تظهر فيها الوف الشخصيات، وفي النتيجة تجد انهم ليسوا اكثر من أربعة أو خمسة فقط، فعندما تبدأ بشخص يدعى «الكسندر» تجد فيما بعد ان اسمه «ساتشا» ثم «ساتشكا» ومن ثم «ساتشنيكا»، وسرعان ما يتضخم فيصبح «الكسندر وفيتش يونين». وما تكاد تهتدي حتى يعودوا إلى تضليلك من جديد.

انها قضية لا نهاية لها . فكل شخصية تبدو اسيرة . لن تقول لي ان ذلك ليس
منهكاً ، حتى بالنسبة لك أيضاً .
قال هونتر :

- أوكد لك يا ميمي ثانية ، انه لا داعي لأن تلفظي الأسماء الروسية باللغة
الفرنسية لماذا لا تقولين تشيخوف بدلاً من تشيكوف . . ؟ فذلك أقرب إلى
الأصل ، بالاضافة إلى ان لفظه بالفرنسية قبيح جداً .

قالت ميمي متضرعة :

- ارجوك ، لا تكن مملاً يا «لويسيتو» . متى ستتعلم كيف نواري
معلوماتك . . . ؟ انك ثقيل الظل ، ومتعب أيضاً .

ثم توجهت الي لتسألني :

- ألا يبدو لك الأمر كذلك . . ؟

فاجبت من دون أن انتبه لما أقول :

- نعم . فنظر إليّ هونتر ساخراً .

كان الحزن قد بلغ بي حداً مريعاً . ويقال بعد ذلك اني لست صبوراً . ما
زلت حتى اليوم اعجب كيف كنت استمع إلى كل تلك الحماقات بانتباه شديد .
وكيف أتذكرها بكل بساطة . والأمر الغريب هو أني حينما كنت أصغي إليها ،
كنت أحاول أن أعزي النفس بأن : « هؤلاء الناس تافهين وسطحيين ، وأن
قوماً على شاكلتهم لا يمكن ان يثيروا في نفس مارياسوى شعور بالوحدة . ان
قوماً على هذه الشاكلة لا يمكن أن يكونوا أهلاً للمزاحمة ابداً » . ومع ذلك فإني لم
اظفر بالسعادة . كنت احس ان الحزن ينبع من اعماقي ، وكنت اشعر بالغم
والقلق ، لأنني لم اكن ادري سبب هذا الحزن رغم ما بذلت من محاولات لتهدئة
روعي ورغم ما صرفت من جهد كي أدع امر معاينة تلك الظاهرة الى الوقت الذي
أكون فيه وحيداً . وفكرت ايضاً ان سبب حزني ، قد يكون ناجماً عن غياب مارياس ،
لكنني انتهت إلى ان غيابها كان يثيرني أكثر مما يحزني . لا لم يكن كذلك .

كانا يتحدثان عن الروايات البوليسية : وفجأة، سمعت المرأة تسأل هونتر ان كان قد قرأ الرواية الأخيرة من سلسلة (الحلقة السابعة) فأجابها :

- ولماذا اقرأها؟ ان جميع الروايات البوليسية متشابهة، قراءة رواية واحدة في العالم تكفي. اما قراءة واحدة في الاسبوع فتتم عن خيال قارئ محدود، كما اتصور.

اغتاظت ميمي، أعني أنها تظاهرت بالغضب وقالت :

- دعك من هذا الهراء. انها الروايات الوحيدة التي يمكن ان تقرأ في هذه الأيام. بل سأقول لك بصراحة إنها تسحرني، فهي بالغة التعقيد كلها، ورجال التحري فيها مدهشون ومحيطون بكل شيء : فن عصر مينغ، علم معرفة الأخلاق من خلال الخط، نظرية «انشتاين» و«باسكال»، لعبة «البيسبول»، علم المستحاثات، التنجيم، الاقتصاد السياسي، احصاءات تربية الارانب في الهند. ثم، إنهم معصومون عن الخطأ بشكل رائع. أليس كذلك...؟

طرحت السؤال وهي تتجه نحوه نحوي ثانية. فوجئت ولم أعرف ماذا أقول فأجبت مجاملًا :

- اجل، انه كذلك.

وعاد هونتر يرمقني بازدراء، لكن ميمي نظرت اليه بحدة وقالت :

- سأقول لجورجي انك لا تطبق الروايات البوليسية.

فأجابها هونتر :

- أنا لم أقل إنني لا أطيقها : قلت إنها تبدو لي متشابهة جميعها.

- سأقول لجورجي على كل حال. لحسن الحظ لا يتحدثون جميع الناس

مثلك. فالسيد كاستيل مثلاً، تعجبه الروايات البوليسية، أليس كذلك؟

سألته مذكوراً :

- أنا...؟

قالت :

- طبعاً .

ولم تنتظر جوابي ، بل عادت تنظر إلى هونتر وتقول :

- لو ان جميع الناس عباقرة مثلك لاستحال العيش . اني واثقة انه لا بد وان تكون لديك نظرية كاملة عن القصة البوليسية .

قال هونتر وهو يتسهم :

- انه لكذلك .

قالت ميمي بصراحة وهي توجه كلامها اليّ ثانية . وكأنها تتخذ مني شاهداً :
- ألم أقل لك . . ؟ لا . . اني اعرف هذا الرجل تماماً .

ثم توجهت إلى هونتر :

- هات لنران لم يكن لديك هاجس حب الظهور حقاً . لا بد انك على أحر من الجمر ، من شدة الشوق إلى شرح نظريتك .

وفعلاً ، فإن هونتر لم ينتظر كي يتوسل اليه احد ، بل راح يشرح :

- نظريتي هي كما يلي : الرواية البوليسية في القرن العشرين ، تمثل ، ما كانت تمثله رواية الفروسية في عصر سرفانتيس . واعتقد انه يمكن في عصرنا هذا ، انتاج عمل مماثل لدون كيخوته ، برواية بوليسية نقدية ساخرة ، تصوروا ، رجلاً أمضى حياته يقرأ روايات بوليسية ، وتوصل به الجنون إلى حد الاعتقاد بأن العالم يتحرك كما هو الأمر في روايات «نيقولا سبلاك» أو «ايلري كوين» . وتصوروا أن هذا المسكين ينطلق في نهاية الأمر لاكتشاف الجرائم . ويسلك في الحياة اليومية ، كما يسلك رجل التحري في تلك الروايات . أعتقد أنه من الممكن إنتاج عمل مبسل ، مأساوي رمزي هجائي رائع .

سألت ميمي باستهزاء :

- لماذا لا تقوم بذلك . . ؟

فأجاب :

- لسببين . لأنني لست سرفانتيس ، ولاني شديد الكسل .

فقالت ميمي :

- اظن ان السبب الأول كاف .

ولسوء الحظ ، توجهت الي ، وقالت وهي تشير بمشرها الطويل إلى هونتر :

- هذا الرجل يتهجم على الروايات البوليسية ، لأنه أعجز من ان يكتب

رواية واحدة فقط ، حتى وان كانت اشد الروايات مللاً في العالم .

قال هونتر بعد ان طلب من ابنة عمه لفافة :

- متى ستكفين عن هذه المبالغات . 'فانا ، أولاً ، لم اتهجم على الروايات

البوليسية ، إنما قلت ببساطة ، إنه يمكن القيام بإنتاج ما ، من قبيل دون كيخوته

عصرنا مثلاً . ومن جهة ثانية ، فانت مخطئة جداً ان تصورت اني مصاب بعجز

مطلق في هذا المجال . لقد خطرت لي ذات مرة فكرة بديعة ، تصلح لرواية

بوليسية .

قالت ميمي بالفرنسية :

- كفى مزاحاً .

واستطرد هونتر :

- نعم . اقول لك نعم . تصوري رجلاً ، له ام وزوجة وابن ، ذات ليلة ،

تقتل الأم بطريقة غامضة . تحريات الشرطة ، لا تتوصل إلى اية نتيجة . بعد مدة

تقتل الزوجة . لا تؤدي التحريات إلى نتيجة ايضاً . وأخيراً يقتل الابن . ويجن

جنون الرجل ، فهو يحب الجميع والولد بصورة خاصة . من شدة يأسه يقرر أن يقوم

بالتحقيق في هذه الجرائم بنفسه وبالطرق المعتادة ، الاستدلالية ، الاختزالية ،

التحليلية ، التركيبية . الخ ، التي يلجأ اليها نوابغ الرواية البوليسية ، ويتوصل

إلى ان القاتل لا بد وان يرتكب جريمة رابعة في يوم معين وساعة معينة ، ومكان

معين . واستدل ان القاتل لا بد وان يقتله هو هذه المرة . وفي اليوم المعين ، والساعة

المحددة لاقتراح الجريمة، يذهب الرجل إلى المكان الذي لا بد وان ترتكب الجريمة الرابعة فيه. وينتظر القاتل دون جدوى. يراجع الرجل استدلالاته. قد يكون خطأ في تقدير المكان...؟ لا... فتقدير المكان صحيح. قد يكون خطأ في تقدير الساعة...؟ لا... تقدير الساعة صحيح أيضاً. وتكون النتيجة مرعبة: ... إن القاتل لا بد وأن يكون في المكان في تلك اللحظة. وبعبارة أخرى: إن القاتل هو ذات الرجل الذي ارتكب الجرائم الأخرى وهو في حالة اللاوعي. رجل التحري والقاتل هما الشخص نفسه.

علقت ميمي قائلة:

- انها في منتهى الاصاله. وهي تنسجم مع ذوقي. ولكن كيف تنتهي؟ الم تقل انه لا بد وان ترتكب جريمة رابعة؟

رد هونتر بفتور:

- النتيجة بمنتهى الوضوح. ان الرجل ينتحرو يبقى الشك قائماً، هل ينتحر بسبب من تبكيت الضمير أم أن الأنا القاتلة تقضي على الأنا التحري، كما هو الأمر في جريمة مبتذلة. ألا تعجبك...؟

قالت ميمي:

- يبدو لي أنها مسلية. لكن أن تقوم بروايتها هكذا أمر، وان تكتبها كرواية، أمر آخر.

أجابها هونتر بهدوء:

- حقاً.

بعد ذلك بدأت المرأة تتكلم عن منجمة، كانت قد تعرفتها في مدينة ماردل بلاتا وعن عرافة تقرأ الكف. ثم ألقى هونتر دعاة، فانزعجت ميمي وقالت:

- سترى ان الأمر على جانب من الجد، فالزوح استاذ في كلية الهندسة. دار بينهما نقاش حول التراسلية، بينما كان غياب ماريًا يقلقني، وحينما

عدت أعيرهما اهتمامي ، كانا يتحدثان عن نظام حقوق العامل .

قالت ميمي بحزم ، وقد شهرت مشربها كعصا موسيقار :

- ما يحدث في الواقع ، هو ان الناس لا يريدون ان يشتغلوا ابداً .

عندما أشرف الحديث على نهايته ، اهتديت فجأة ، إلى ما بدد اسباب حزني الذي لم أكن أعرف له مصدراً : أدركت أن ميمي تلك قد وصلت في آخر لحظة ، وان ماريا لم تنزل لئلا تضطر إلى تحمل آرائها وآراء ابن عمها (التي كانت ، بالتأكيد ، تعرفها حق المعرفة) . هذا الخدس ، كما أتذكر الآن . لم يكن مجرد مظنة ، وانما يعود إلى بضع كلمات رواها لي السائق ونحن في طريقنا إلى المزرعة ، لم أعرها أي اهتمام آنذاك ، وهي تتعلق بابنة عم للسيد كانت قد وصلت لتوها من ماردل بلاتا كي تتناول الشاي . المسألة اذن في منتهى الوضوح : . . . اعتكفت ماريا في غرفة نومها مدعية المرض ، بسبب انزعاجها من وصول تلك المرأة المفاجيء وكان من الواضح انها لا تستطيع تحمل اشخاص كأولئك . وشعوري بأن هذا الاستنتاج قد بدد حزني ، هداني فجأة إلى مصدر هذا الحزن : حين وصلت إلى المزرعة ، ورأيت هونتر وميمي منافقين تافهين ، شعرت بالفرح يلامس الجانب السطحي من نفسي ، لأنني كنت أدرك والحالة هذه ان هونتر لا يملك أية امكانية للمنافسة ، لكنني عندما كنت أفكر (أوبالأحرى أشعر) ، أن ماريا كانت جزءاً من تلك المجموعة ، وأنها قد تتمتع بصورة ما ، بخصال مشابهة كان الحزن ، يغمر الجانب الأعمق من نفسي .

عندما نهضنا من حول المائدة لنتجول في الحديقة، رأيت ماريا تقترب منا،
مما أكد صحة افتراضي: . . . كانت تنتظر تلك اللحظة، لتتجنب حديث المائدة
التافه.

كنت، كلما اقتربت ماريا مني بحضور أناس آخرين، أفكر: «ان بين هذا
المخلوق الرائع وبينني، رباطاً خفياً. . .». وفيما بعد، حينما كنت أقوم بتحليل
مشاعري، سرعان ما كنت أدرك، أنها بدأت تصبح ضرورة لا غنى لي عنها (كما لو
ان احدنا عشر على الآخر في جزيرة مقفرة) وما ان راح خوفي من العزلة المطلقة
يتبدد، حتى بدأت تتحول إلى نوع من الترف يثير في الشعور بالكبرياء، وكان أن
بدأت، في تلك المرحلة من حبي لها، تبرز آلاف المصاعب، مثلما يحدث لمن يكاد
يموت من الجوع فلا يتردد في قبول أي شيء يقدم اليه، وحالما يشبع ضروراته
الملحة، يبدأ بالتبرم والشكوى من العيوب والمساوىء، شيئاً فشيئاً. لقد اتيح لي
أن أرى في الأعوام الأخيرة مهاجرين وفدوا، وهم يتحلون بوضاعة الفارين من
معسكرات الاعتقال، يقبلون أي شيء في سبيل النجاة، ويتولون بسرور، القيام
بأحط الأعمال. ولكن الأمر الغريب حقاً، هو ان احدهم لا يقنع بأن يهرب من
التعذيب والموت لكي يعيش سعيداً: فسيما ان يبدأ بالتمتع بامان جديد، حتى
تعاوده نوازع الزهور والغرور والعجرفة، بعد أن كان يترأى، أنه تم القضاء عليها
إلى الأبد، وكما لو أن تلك النوازع ما هي الا بهائم عادت، بعد ان هربت
مذعورة، لتبدو أشد عتياً، وكأنه اخجلها ان يكون انهارها قد بلغ هذا الحد.
يتعين علينا أن ندرك، كيف تساعد مثل هذه الظروف، على ظهور نوازع الجحود
ونكران الجميل.

انني إذ استطيع الآن تحليل مشاعري بهدوء، اظن ان شيئاً من هذا كان
يشوب علاقاتي بماريا، وأشعر انني ادفع، بصورة ما، ثمن حماقة ما ارتكبته،

عندما لم اقنع بإسهام ماريّا الذي أنقذني (موقتاً) من العزلة، إن تلك النشوة المفعمة بالكبرياء، وتلك الرغبة المتنامية بالامتلاك متفرداً، كان يجب أن تكشفها لي، أنني اتوجه في طريق الخطأ، يقودني الغرور والصلف.

في تلك اللحظة، عندما رأيت ماريّا مقبلة، كان ذاك الشعور بالكبرياء يتلاشى تحت وطأة إحساس بالذنب والعار أثارتها ذكرى المشهد المريع في مرسمي، واتهامي اللفظ الرخيص، بأنها إنما كانت «تخضع ضريباً» شعرت بأن رجلي تتداعيان، وبالقشعريرة والشحوب يغزوان وجهي. واجدني هكذا في وسط هؤلاء الناس...! هكذا لا أستطيع أن ارتمي ذليلاً اطلب منها الصفح، وتسكين موجة الغضب والاحتقار التي تكنها لي...!

ولكن لم يبد أن ماريّا فقدت رباطة جأشها، وبدأت أشعر في الحال، أن الحزن المبهم، الذي سيطر علي في ذلك المساء، عاد يملكني من جديد.

حيثني بعبارات رصينة، كأنها ارادت أن تبرهن أمام قريبيها ان ما بيننا لا يتعدى مجرد الصداقة، وتذكرت بانزعاج وازدراء، ما حدث لي معها قبل أيام. فقد قلت لها أثناء احدى نوبات القنوط، انني أود في احدى الامسيات مشاهدة ابراج «سان خمينيانو» من فوق احدى التلال. فنظرت إلي بحماس وقالت: «ما اروع ذلك يا خوان بابلو»، ولكن عندما اقترحت ان نهرع إليها تلك الليلة ذعرت وتقلصت اسارير وجهها وقالت لي بكآبة: «ليس من حقنا ان نفكر في ذاتنا وحسب، ان العالم معقد جداً». وعندما سألتها ماذا كانت تعني بذلك، اجابت بنبرة اشد كآبة: «ان السعادة مخوفة بالآلام». فتركتها فجأة ولم اودعها. وشعرت يومها، اكثر من أي وقت مضى، انني لن أتمكن من الاندماج الكامل معها أبداً، وانه يترتب علي ان استسلم لما اظفر به من لحظات وصال هشة، عابرة وكثيبة، كذكرى بعض الأحلام، أو كنشوة بعض المقاطع الموسيقية.

وهامي الآن قد وصلت، تتحكم في كل حركة من حركاتها، وتزن كل

كلمة من كلماتها، وكل ايحاء من ايحاءاتها، وحتى انه كان بوسعها أن تبسم لتلك المرأة أيضاً...!

سألني ان كنت قد اتيت باللوحات، فصحت بغيظ، وأنا أعلم انني احبط احدى مناوراتها المعقدة، وان كانت لصالحنا:
- اية لوحات...؟

فقلت وهي بكامل هدوءها:
- اللوحات التي وعدت بعرضها علي. لوحات الميناء.
رمقتها بنظرة مفعمة بالحق، لكنها تحملت نظرتي وهي عابسة الاسارير، وبعد لحظة قصيرة عادت نظرتها تلين، وكأنها تقول: «رحماك من كل هذا».
حبيتي... يا حبيتي ماري...!... كم عانيت من لحظات التوسل والاذلال هذه!

نظرت اليها بحنان وقلت:
- أتيت بها طبعاً، إنها في مخدعي.
فقلت وهي تحافظ على فتورها:
- إني مشتاقة جداً لرؤيتها.
فقلت وقد أدركت ما ترمي اليه:
- يمكننا أن نراها الآن.

وارتعشت لدى تصوري احتمال ان تلحق ميمي بنا. لكن ماري التي تعرفها أكثر مني قالت على الفور، لتحول دون أية محاولة من ميمي لحشر نفسها:
- سنعود حالاً.

ثم أمسكت ذراعي بحزم، وقادتني باتجاه المنزل، ويلمحة عابرة، تصورت ان ميمي نظرت الي هونتر، وفي عينيها وميض ذو مغزى.

كنت أحسب أني سأقضي عدة أيام في المزرعة ، ولكني أمضيت ليلة واحدة فقط ، فما ان اشرقت شمس اليوم الذي تلا وصولي ، حتى لذت بالفرار مشياً على قدمي ، احمل حقيبتى وصندوقى . قد يبدو هذا التصرف ضرباً من الجنون ، ولكن سنرى إلى أي حد كان له ما يبرره .

ما ان افترقنا عن هونتر وميمي حتى ولجنا البيت ، وصعدنا للبحث عن اللوحات المزعومة ثم هبطنا ومعنا الصندوق ، ومحفظة بدت كأنها تحتوي بعض الرسوم . كانت تلك حيلة من بنات أفكار ماريّا .

كان ابنا العم قد تواريا عن الأنظار . عندئذ بدأت ماريّا تشعر بانشرح بالغ ، وعندما مشينا عبر الحديقة نحو الشاطئ ، كان يمتلكها حماس حقيقي . كانت امرأة تختلف عن تلك التي كنت أعرفها حتى ذلك الحين في جو المدينة الكثيب : كانت أكثر نشاطاً ، وأوفر حيوية وبدت لي أيضاً أنها تنم عن نهم للألوان والروائح ، لم أعهد فيها من قبل : كان حماسها غريباً (غريباً عليّ أنا الذي امتلك منهما باطنياً ، يكاد لا يرقى إليه سوى الخيال المحض) كان يثيرها لون جذع شجرة ، وورقة خريفية جافة ، وحشرة ما ايا كانت ، واريح اشجار الكينا الممزوج بعبير البحر . يبدو ان ذلك كان ، بدلاً من أن يزيدني فرحاً ، يملأ نفسي اسى وبأساً لأنني كنت أشعر ، أن ماريّا هذه ، ليست تلك التي عرفتھا إطلاقاً ، فهي لا بد وان تخص - بشكل ما - هونتر أو اى شخص آخر .

كان حزني يشتد شيئاً فشيئاً ، ولعل السبب في ذلك يعود أيضاً إلى صخب الامواج الذي كنا نحس هديره يتناهى إلى مسامعنا تدريجياً . حينما اجتزنا الهضبة ، وتجلت امام عيني سماء ذلك الشاطئ ، شعرت بأن لا مناص لي من ذلك الحزن ابداً ، فقد كان ينتابني دائماً عندما اواجه الجمال ، أو على الأقل ، بعض

أنواع الجمال . هل يشعر الجميع بمثل ماأشعر، أم أن ذلك عيباً آخر من عيوب
طبيعتي التعيسة؟

جلسنا فوق الصخور، والتزمنا الصمت زمناً طويلاً، نصغي إلى الأمواج
الصاخبة تتلاطم من تحتنا، ونحس رذاذ الزبد المتطاير يغمر وجهينا عندما تبلغ
موجاته أعالي الجرف . ذكرتني السماء الصافية بمنظر سماء تينتوريتو^(١) في لوحته انقاذ
اسماعيل .

قالت ماريا :

- كم مرة حلمت بمشاطرتك هذا البحر وهذه السماء .

صمتت برهة و اردفت تقول :

- يبدو لي أحياناً، كأننا كنا دائماً، نعيش هذا المشهد معاً . عندما وقع نظري
على تلك المرأة المعتزلة في نافذة لوحتك، احسست انك مثلي وانك تبحث أيضاً
بصورة عشوائية عن احداً ما، عن محاور ما ألكم، ومنذ ذلك اليوم وأنا افكر فيك
باستمرار، لقد حلمت بك كثيراً هنا في هذا المكان، حيث قضيت ساعات طويلة
من عمري . حتى اني فكرت في احد الأيام، ان ابحت عنك واعترف لك . لكنني
خفت ان اخطيء كما كنت قد اخطأت مرة، فانتظرت ان تكون انت الذي يقوم،
بشكل ما، بالبحث عني في حين كنت أقوم بتقديم مساعدة فعالة لك، كنت في
كل ليلة أناجيك، وبلغ يقيني بالعثور عليك حداً، جعلني اقف مذعورة لا أملك
سوى نطق بضع عبارات بليدة، حينما حدث اللقاء امام باب ذلك المصعد التافه،
وعندما هربت تتألم مما حسبته، خطأ ارتكبته، اخذت اعدو ورائك كالمجنونة . ثم
توالت تلك اللقاءات في حديقة سان مارتين، وكنت تعتقد انه لا بد لك من ان
تفسر لي بعض الأمور، في حين كنت أحاول أنا تضليلك، يتنازعني القلق من أن
افقدك إلى الأبد، والخوف من ان اسبب لك الأذى . كنت أحاول ان اثبط

١ - رسام ايطالي عاش في القرن السادس عشر، وتميزت لوحاته بالتباين الشديد بين
الضوء والظل . المترجم

خماسك، واجعلك تحسب اني لم أكن أفهم كلماتك المتقطعة وحديثك الحافل بالرموز.

لم أقل لها شيئاً. كانت تدور في خلدي مشاعر رائعة، وأفكار قائمة، وأنا استمع الى صوتها، ذاك الصوت الساحر، وبدأت ارتمي في جو مسحور. وراح افول الشمس يشعل نوايه ضخمة بين غيوم الغروب. واحسست ان تلك اللحظة السحرية لن تتكرر أبداً. «أبداً أبداً». فكرت، وأنا أراقب دوار الجرف، واتصور، كم كان سهلاً لو أجريها ورتمي في القاع معاً...!

سمعت بعضاً مما كانت تقول بصوت متقطع: «... يا الهي... أشياء كثيرة في هذا الخلود تجمعنا معاً... أشياء فظيعة... لسنا هذا المنظر وحسب، انما مخلوقات صغيرة من لحم وعظم، تفيض بشاعة وتفاهة...».

كان البحر قد بدأ يتحول إلى مارد اسود وحل الظلام المطبق فجأة، وشرع هدير الموج في أسفل الجرف يكتسب جاذبية كثيفة: وعادت تراودني فكرة... كم كان سهلاً... نعم هي التي كانت تقول إننا مخلوقات تفيض بشاعة وتفاهة، ولكن رغم أني كنت أعرف مدى قدرتي على القيام بأعمال حقيرة، فقد كان مجرد التفكير بأنها هي أيضاً، يمكن أن تكون كذلك يملأني كآبة، ولقد كانت كذلك حقاً. ولكن... كيف؟... مع من؟... متى؟ وراحت تنمو في أعماقي رغبة عمياء في أن انقض عليها وامزقها باظافري، واطبق على عنقها حتى اخنقها ثم القى بها في البحر. وسرعان ما سمعت مرة أخرى، بعضاً مما كانت تقول: كانت تتحدث عن ابن عم لها، خوان، أو ما شابه ذلك، تحدثت عن الطفولة في الريف خلت أني سمعت شيئاً عن وقائع «عاصفة وقاسية» كانت قد حدثت مع ابن عمها. وبدأ لي أن ماريا كانت تبوح باعترافات قيمة، وانني قد ضيعتها بحماقتي.

صرخت:

- يا لها من وقائع عاصفة وقاسية...!

لكن الأمر الغريب هو أنها لم تكن تسمعي : لقد كانت هي أيضاً غارقة في
سبات ، وكانت على ما يبدو، وحيدة أيضاً .
- مضى وقت طويل ، لعله كان ربع ساعة .

ثم احسست بها تداعب وجهي ، كما كانت تفعل في لحظات أخرى
مشابهة . لم اقو على الكلام . وضعت رأسي في حجرها كما كنت أفعل مع أمي
عندما كنت طفلاً . ومكثنا هكذا زمناً ساكناً متوقفاً مجبولاً من الطفولة والموت .
كم يؤسفني ان يكون وراء ذلك وقائع غامضة ومريية . . ! كم تمنيت ان
اكون مخطئاً ، وكم تمنيت ألا تكون ماريا اكثر مما هي عليه في تلك اللحظة ! . يبدو
أن ذلك كان مستحيلاً : بينما كنت اصغي إلى نبضات قلبها قريباً من مسمعي
وبينما كانت يدها تداعب شعري ، كانت تتحرك في ظلمة رأسي افكار قاتمة ، كأنها
في دهليز موحل تنتظر لحظة الخروج وهي تهمهم وتتخبط في الطين .

حدثت امور بالغة الغرابة . حينما عدنا إلى البيت ، وجدنا هونتر مضطرباً جداً (وان كان ممن يعتقدون ان اظهار الانفعالات ليس من اللياقة في شيء) حاول كبت هيجانه ، انما كان من الواضح ان امراً ما قد حدث . كانت ميمي قد انصرفت وكل شيء في غرفة الطعام اعد بانتظار العشاء ، ورغم انه كان من الجلي اننا تأخرنا كثيراً ، فما ان وصلنا حتى بدأت تدب حركة سريعة وفعالة لتقديم الطعام . خيم الصمت ، ولم يتكلم أحد تقريباً : أحصيت على هونتر كلماته وحركاته ، لأنني شعرت أنها قد تلقي ضوءاً على كثير من الأفكار التي كانت تدور في ذهني ، وعلى افكار اخرى آخذة بالتبلور . راقبت ايضاً وجه ماري ، فلم تكن اساريه تنم عن شيء . قالت لتخفف من وطأة الجوالمتوتر ، انها تقرأ قصة لسارتر فعلق هونتر بضيق ظاهر :

- قصص في هذا الزمن . ليكتبوا ما طاب لهم ، ولكن هات من يقرأ . . . !

ثم خيم علينا الصمت ، ولم يحاول هونتر ان يبذل أي جهد للتخفيف من آثار تلك العبارة واستنتجت انه كان يضمّر في نفسه شيئاً ما ضد ماري . ولما لم يكن هناك ما يسترعي الإنتباه قبل ذهابنا إلى الشاطيء ، رأيت أن ذلك الشيء ، قد نشأ اثناء حديثنا الطويل ، وكان من الصعب التسليم بأنه لم يكن بسبب ذلك الحديث أو بالأحرى ، بسبب الوقت الطويل الذي قضيناه معاً هناك . وكان ما استنتجت هو : إن هونتر يغار وهذا يدل على أن ما بينه وبين ماري ، كان أكثر من مجرد علاقات صداقة وقربى . وذلك ، لا يعني بالضرورة ان تكن ماري له الحب ، بل على العكس : الأرجح ان هونتر كان يغتاض كلما رأى ماري تولي اهتماماً لأشخاص آخرين . وكيفما كان الأمر ، فما دام منشأ غيظ هونتر هو الغيرة ، كان لا بد له وان يظهر لي العداء ، إذ ليس بيني وبينه أي شيء آخر . وهكذا كان ، وحتى

ان لم يكن هناك دلائل اخرى، لكنك اكتفيت بتلك النظرة الجانبية التي رماني بها في أعقاب عبارة ذكرتها ماريا حول الجرف.

تذرعت بالتعب، وذهبت إلى غرفتي حالما نهضنا من حول المائدة. وكان قصدي هو الحصول على اكبر عدد من الادلة حول المسألة. صعدت السلم، وفتحت باب غرفتي واشعلت النور، ثم صفقت الباب كما لو أنني اوصده، ومكثت خلفه استرق السمع. وسرعان ما ترامي الى مسامعي صوت هونتر ينطق عبارة مشوشة لم أميز كلماتها، إنما لم تلق جواباً من ماريا. ثم تفوه بعبارة أخرى أطول واشد اضطراباً من سابقتها. وقالت ماريا بضع كلمات بصوت منخفض جداً تداخلت مع نهايات عبارة هونتر، وتبع ذلك جلبة كراس، ثم وقع أقدام تصعد السلم: اوصدت الباب بسرعة، لكنني بقيت استرق السمع خلال ثقب المفتاح، وبعد لحظات، سمعت وقع اقدام تمر من امام باب غرفتي: كانت خطوات امرأة، بقيت متيقظاً وقتاً طويلاً، افكر بما كان يحدث وأحاول ان استمع إلى أية همسة. لكنني لم اسمع شيئاً طوال الليل.

لم أتمكن من النوم: بدأت تعذبني سلسلة من الهواجس لا عهد لي بها من قبل. وسرعان ما ادركت سذاجة استنتاجي الأول: كنت احسب (حقاً) انه ليس من الضروري ان تكن له الحب كي يشعر هونتر بالغيرة، وكان هذا الاستنتاج يربحني. لكنني أدركت الآن، أنه إن لم يكن من الضروري حقاً، لكن ليس هناك ما يمنع أيضاً.

يمكن أن تحب ماريا هونتر، وان كان هو يشعر بالغيرة.

وعلى كل حال، هل كانت هناك دواع للاعتقاد بأن لماريا علاقات ما مع ابن عمها...؟ إني أعتقد ولا شك أن هناك دواع...!. إن كان هونتر، يضايق ماريا بغيرته، في حين انها لا تحبه، فلماذا كانت تتردد على المزرعة ما بين حين وآخر؟ ما من أحد كان يعيش في المزرعة سوى هونتر. لقد كان وحيداً (لم أكن أعرف ان كان عازباً، أم ارملاً، أم مطلقاً، وان كنت احسب ان ماريا قالت لي مرة، انه

كان منفصلاً عن زوجته . ولكن الأمر الهام هو ان ذاك السيد كان يعيش في المزرعة وحيداً . وما يثير الريبة في هذه العلاقة ان ماريا كانت تحدثني عن هونتر بلا مبالاة دائماً ، اعني ، كمن يتحدث عادة عن أي كان من أفراد العائلة انما لم تذكر او تلمح لي ابداً ان هونتر كان يحبها ، أو انه كان يغار عليها . هذا ومن جهة اخرى فإن ماريا كانت قد حدثني عصر ذلك اليوم عن مكان الضعف فيها ، فماذا كانت تعني بذلك . . . ؟ لقد رويت لها في رسالتي سلسلة من الامور المهيئة (حول سكري ، والمومسات) وهاهي تقول لي انها كانت تتفهم ، وانها هي ايضاً لم تكن زوارق تبحر فقط او حدائق تشرق عليها شمس الغسق وحسب . ماذا يمكن ان يعني ذلك ، سوى ان حياتها ، مثل حياتي ، كانت حافلة بامور بالغة الغموض والمهانة ايضاً . . ؟ ألا يمكن ان تكون علاقاتها مع هونتر من النوع الذي ينطوي على اهواء منحطة . . ؟

كنت ، طوال الليل اجتر تلك الاستنتاجات ، واتفحصها ، من وجهات نظر مختلفة . والنتيجة الحاسمة التي توصلت إليها هي : إن ماريا عشيقة هونتر . ما ان لاحت تباشير الصباح حتى هبطت السلم أحمل حقيتي وصندوقتي . التقيت بخادم كان يفتح الابواب والنوافذ ، ليباشر التنظيف : كلفته ان يبلغ السيد تحياتي ، ويخبره اني اضطررت إلى السفر فوراً إلى بوينس ايرس . فنظر إلي الخادم وقد اعترته الدهشة . وبصورة خاصة عندما قلت له اني ذاهب إلى المحطة مشياً على قدمي .

كان يترتب علي ان انتظر في المحطة الصغيرة عدة ساعات ، وخلت للحظات ان ماريا قد تأتي ، وترقب هذا الاحتمال ، بمرارة الرضى التي يشعر بها طفل حبس نفسه في مكان ما ، لأنه يعتقد بانه ظلم ، وراح ينتظر وصول من هو اكبر منه ، ليبحث عنه ، ويعترف له بالخطأ الذي اقترف بحقه . لكن ماريا لم تأت . عندما وصل القطار ، والتفت القى آخر نظرة على الطريق ، آملاً في ان تظهر في آخر لحظة ، لم ارها ، فشعرت بحزن لا حدود له .

كنت اطل من نافذة القطار، الذي انطلق باتجاه بوينس ايرس . مر بالقرب من كوخ نظرت اليه امرأة من تحت السقيفة . فخطرت لي فكرة بلهاء : « انني ارى هذه المرأة للمرة الاولى والأخيرة . وسوف لن اراها في حياتي ثانية » . كانت أفكاري تطفو كقطعة فلين في نهر مجهول . وظلت تطفو حول تلك المرأة الواقفة تحت السقيفة فترة . . ماذا يهمني من تلك المرأة . . ؟ . . ولكن ، لم اتمكن من التخلص من التفكير بانها وجدت من أجلي للحظة ، وانها لن توجد ثانية ابداً ، فلقد كانت برأيي كأنها قد ماتت : لو ان القطار تأخر قليلاً ، اولو أن احداً ناداها من داخل الكوخ ، لما كان لهذه المرأة وجود في حياتي ابداً .

كان كل شيء يبدو لي عابراً ، مؤقتاً ، تافهاً ، لا لزوم له . لم أكن افكر بصورة سليمة . وكانت ماريا تتراءى لي ، اكثر فأكثر ، شيئاً كثيباً لا وجود له . وما ان مضت بضع ساعات حتى بدأ تفكيري يستعيد دقته وسرعته المعهودتين .

كانت الأيام التي سبقت موت ماريّا أفزع أيام حياتي . ويتعذر علي الآن أن أقدم رواية كاملة عن كل ما شعرت به ، وفكرت فيه ، ونفذته ، فانا ان كنت اتذكر بدقة عجيبة ، كثيراً من الاحداث ، بيد ان هناك ساعات ، وحتى ايام كاملة ، تلوح لي كأحلام باهتة مشوهة . اتصور اني قضيت اياماً كاملة تحت تأثير الكحول مستلقياً على سريرى ، او على مقعد في منطقة الميناء . عندما وصلت إلى محطة كونستيتوسيون ، اتذكر جيداً اني دخلت الحانة وطلبت عدة كؤوس من الويسكي تتالياً ، ثم اتذكر بقليل من الوضوح ، اني نهضت واستقليت سيارة اجرة ، ثم ذهبت إلى حانة تقع في شارع ٢٥ مايو ، وربما في شارع لياندر واليم . تلا ذلك بعض الضجيج ، والموسيقى والصيحات ، وضحكة اغاظتني ، وبضع زجاجات محطمة ، واضواء باهرة ، ثم اتذكر اني شعرت بثقل في جسمي ، وبصداع رهيب في رأسي بينما انا في سجن مخفر للشرطة ، وشرطي كان يفتح الباب ، وضابط يقول لي شيئاً ما ، ثم وجدتني ثانية اتسكع في الشوارع واحك جلدي بشدة . واظن اني دخلت إلى احدى الحانات مرة اخرى . وبعد ساعات (أو ايام) القى بي احد ما في مرسمي . ثم انتابتنى كوابيس ، كنت اراني تحت وطأتها ، اسير فوق سطوح احدى الكنائس . واتذكر ايضاً اني صحوت مرة وأنا في غرفتي وسط الظلام تسيطر علي فكرة مخيفة ، وهي أن الغرفة اتسعت حتى اللانهاية واني مهما ركضت لن اتمكن من بلوغ حدودها ابداً . لا ادري كم من الوقت كان قد مضى حينما تسربت خيوط ضوء الفجر من النافذة ، تحاملت إلى الحمام ، والقيت بنفسي في المغطس وأنا لا ازال بملابسي . بدأ الماء البارد يجعلني اثوب إلى رشدي وبدأت تلوح في مخيلتي بعض الوقائع المنعزلة ، انها بصورة ممزقة مشتتة ، مثل طلائع الأشياء التي تطفو على سطح الماء بعد طوفان كبير : . . ماريّا عند الجرف ، ميمي تقبض على مشربها ،

محطة أجنيدى، دكان أمام المحطة اسمه «الثقة» أوريا «المحطة»، ماريا تسأل عن اللوحات، أنا اصيح: «اية لوحات . . !»، هونتر ينظر إلى عابساً، أنا في الطابق الثاني قلق أشرق السمع لحوار ابني العم، بحار يقذف بزجاجة، ماريا تدنومني وعيناها لا تنهان عن شيء، ميمي تقول تشيكوف، امرأة نجسة تقبلني وأنا اصفعها بقبضتي، براغيث تنهش في جميع انحاء جسمي، هونتر يتحدث عن روايات بوليسية، سائق المزرعة . . برزت ايضاً نتف من احلام: الكنيسة من جديد، في ليلة حالكة السواد، والغرفة بحدودها التي لا نهاية لها.

ثم بقدر ما كانت برودة الماء تنعشني، كانت تلك النتف تتحد مع نتف اخرى، بدأت تنبثق في وعيي، لتعيد تشكيل الصورة، انما بشكل كئيب وموحش، مثل كآبة ووحشة المناظر التي تنعكس على سطح الماء.

خرجت من الحمام، وخلعت ملابس المبللة ثم ارتديت غيرها، وباشرت كتابة رسالة إلى ماريا. كتبت اولاً، انني كنت أود ان ابررها فراري من المزرعة (شطبت كلمة «فراري» ووضعت كلمة «عودتي») وأضفت، أنني أقدر جداً الاهتمام الذي ابدته نحوي (شطبت كلمة «نحوي» ووضعت كلمة «شخصي») . وني ادرك انها طيبة جداً، ومفعمة بالعواطف النبيلة، على الرغم من ان «الاهواء المنحطة» تهيمن عليها أحياناً كما سبق لها وأعلمتني هي بالذات. وقلت لها، اني أقدر مسألة ابحار الزورق أو التردد على الحديقة بصمت عند الغسق، حق قدرها، بيد انه، كما يمكن لها ان تتصور، (شطبت كلمة «تتصور» ووضعت كلمة «تقدر»)، لم يكن يكفي لديمومة حب، أو اختباره: ان أبقى مضللاً لا أفهم كيف امكن لامرأة مثلها، ان تكون اهلاً لترديد كلمات الحب على مسامعي ومسامع زوجها، وان تقوم في الوقت ذاته، بمضاجعة هونتر، واضفت مؤكداً، انها تقوم ايضاً بمضاجعة زوجها ومضاجعتي . وختمتها بقولي، ان مثل تلك التصرفات، كما يمكن لها ان تدرك، تحتاج إلى التفكير ملياً . . الخ.

قرأت الرسالة مجدداً، وبدأ لي بعد التنقيحات التي ذكرتها انها أصبحت
جارحة بما فيه الكفاية، اغلقتها، وقصدت مراكز البريد وارسلتها مسجلة.

ما ان غادرت مركز البريد، حتى ادركت امرين: الأول، هو اني لم أذكر في الرسالة لم استتجت أنها كانت عشيقة هونتر، والثاني، هو اني لم أعرف ما الذي كت ارمي اليه من جراء الاساءة اليها بلا أدنى رحمة. ألا جعلها تغير من سلوكها فيما لو ثبتت صحة تكهناتي...؟. كان هذا يبدو في منتهى السخافة. ألا جعلها تتهافت علي...؟. ليس من المعقول ان أبلغ ذلك بمثل هذه التصرفات، إلا اني كنت احس في اعماقي فقط برغبة عارمة في ان تعود ماريا الي. ولكن إذا كان الأمر كذلك، لماذا لا أكون صريحاً معها، فأشرح لها بلا إساءة، اني غادرت المزرعة لأنني لاحظت فجأة امارات غيرة هونتر...؟ وفي جميع الأحوال فان استنتاجي بأنها كانت عشيقة هونتر، كان، إلى جانب كونه جارحاً، بلا معنى تماماً، فهو على كل حال افتراض محض، استطعت ان اصوغه، بقصد توجيه تحقيقاتي المستقبلية فقط.

ها اني مرة اخرى ارتكب حماقة كما هي عادتي، فكتب رسالة مرتجلة وأرسلها بسرعة. الرسائل الهامة يجب الاحتفاظ بها يوماً واحداً على الأقل، حتى نتبين بوضوح ما قد يترتب عليها من نتائج.

بقي لدي بصيص أمل ضئيل. قسيمة البريد...! فتشت عنها في جميع جيوبي ولكن لم أعثر لها على أثر: لعلني، غباء مني، قد رميتها هناك. عدت مسرعاً إلى مركز البريد، واتخذت مكاني في الصف امام شباك الرسائل المضمونة، وحينما جاء دوري، سألت الموظفة، وأنا احاول ستر نفاقي، باذلاً جهداً مضنياً كي ابتسم:

- ألا تعرفيني...؟

نظرت المرأة إلى بدهشة: من المؤكد انها ظنتني مجنوناً، ولكي ابدد ما

اعتراها من لبس ، قلت اني الشخص الذي بعث منذ قليل ، رسالة إلى مزرعة «لوس اومبوس» ولكن يبدو أن تلك البلهاء قد ازدادت دهشة ، فالتفتت نحو زميل لها ، لعله يشاركها الدهشة اويقدم لها النصيح في مسألة استعصى عليها فهمها ، ونظرت الي ثانية ، فقلت :

- لقد اضعت القسيمة .

ولما لم اتلق جواباً ، اضفت :

- اعني انني احتاج إلى الرسالة ، والقسيمة ليست معي .

تبادلت المرأة والموظف الآخر النظرات فترة ، كأنهما شريكان يلعبان

بالورق . ثم سألتني بلهجة من استحوذت عليه دهشة غريبة :

- تريد استرجاع الرسالة . . ؟

- اجل ، انه كذلك .

- وحتى من دون ان تكون القسيمة معك . . ؟

كان يتعين علي ان اسلم فعلاً بان تلك الوثيقة الهامة لم تكن بحوزتي .

وكانت دهشة المرأة قد بلغت أوجها . تَمَتَّتْ بضع كلمات لم أفهمها ، ثم عادت

تنظر إلى زميلها ، وتقول بصوت متهدج :

- يريد استرجاع الرسالة .

اعتري وجه الآخر ابتسامة تنم عن منتهى البلاهة ، وكان يقصد الإفصاح

عن المعية ، ونظرت المرأة إلي وقالت :

- استرجاعها امر مستحيل تماماً .

فاجبتها وانا اخرج بعض الأوراق من جيوبي :

- بوسعي ان أقدم لك وثائق .

فقلت :

- لا أستطيع أن أفعل شيئاً ، فالقانون لا يسمح بذلك بتاتاً .

كانت تثيرني شامة على خدها نما عليها شعر طويل ، فصرخت في وجهها

بعنف :

- القانون ، كما تعلمين ، يجب ان ينسجم مع المنطق .

فسألتي بهدوء يسم عن الخبث .

- وهل تعرف القانون انت . . ؟

فقلت بتؤدة :

- لا حاجة بي إلى معرفة القانون يا سيدة .

وكنت أعلم أن كلمة سيدة لا بد وأن تجرح شعورها بصورة قاتلة .

لمعت عينا تلك المسخ غيظاً لكنني اردفت قائلاً :

- تعلمين يا سيدة ان القانون لا يمكن ان يتناقض مع المنطق : لا بد ان

يكون من وضعه انساناً عاقلاً لا مجنوناً . فان اودعت البريد رسالة ، وعدت فوراً

اطلب استردادها فما ذلك إلا لأني قد نسيت امرأ هاماً ، والمنطق يقضي بان يلبي

طلبي . ام ان مهمة البريد هي الاصرار على اىصال الرسائل ناقصة ومبهمة . . ؟

انه من الواضح والمعقول تماماً ، ان البريد وسيلة من وسائل الاتصال ، وليس

وسيلة من وسائل القهر: البريد لا يستطيع ان يلزميني بأن أبعث رسالة لا أود

ارسالها .

قالت :

- لكنك انت اردت ذلك .

فصرخت في وجهها :

- أجل . . . ! . . . لكن أعود فأكرك أنك أني لا أريد إرسالها الآن !

- لا تصرخ ، كن مؤدباً ، لقد فات الوقت الآن .

فقلت وانا اشير إلى سلة الرسائل المودعة :

- لم يفت الوقت بعد ، لأن الرسالة ما زالت موجودة هناك .

بدأ الناس محتجون بصخب . كان وجه تلك العانس يرتجف غيظاً .
وباشمئزاز بالغ شعرت بان كل حقدي كان ينصب على الشامة .
قلت وانا أعرض عليها بعض الاوراق والوثائق الشخصية :
- يمكنني ان اثبت لك اني انا الشخص الذي اودع الرسالة .
لكنها عادت تقول :

- لا تصرخ ، لست صماء ، لا يمكن أن أتخذ قراراً كهذا .
- استشيري رئيسك اذن .
- لا أستطيع . هناك كثير من الناس ينتظرون . عملنا كثير هنا ، ألا تفهم ؟
قلت :

- هذا الأمر يشكل جزءاً من العمل .
اقترح بعض الذين كانوا ينتظرون دورهم ان تعيد الي الرسالة حالاً ، وتثابر
على عملها ، ترددت المرأة قليلاً ، وتظاهرت بأنها مشغولة بعمل آخر ، ثم ذهبت
إلى الداخل وعادت بعد فترة طويلة لتفتش في الجعبة ، وقد استحوز عليها مزاج
اشبه بمزاج كلب ، وسألت بهلجة كأنها فحيح افعى :
- اية مزرعة . . ؟

فأجبت بهدوء ينم عن غيظ دفين :
- مزرعة «لوس اومبوس» .
بعد ان نقت بصورة مصطنعة عن الرسالة طويلاً ، تناولتها ثم راحت
تفحصها كما لو انها تعالين سلعة معروضة للبيع ، وهي تشك في الفائدة من
شرائها . قالت :

- عليها الحروف الأولى من الاسم ، والعنوان فقط .
- وماذا اذن . . ؟
- ما الوثائق التي تملكها لكي تثبت انك انت الذي اودعها . . ؟

قلت وانا اعرض عليها المسودة :

- لدي مسودة الرسالة .

تناولتها وتفحصتها، ثم اعادتها إلي وقالت :

- وكيف نعرف ان هذه هي مسودة الرسالة . . ؟

- الأمر في غاية البساطة : لنفض المغلف ونتحقق .

ترددت المرأة لحظة، ونظرت الى مغلف الرسالة المغلق، ثم قالت :

- وكيف سنفتح هذه الرسالة، ان كنا لا نعرف بعد، ان كانت تخصك؟ . .

انا لا استطيع أن أفعل ذلك .

اخذ الناس يحتجون ثانية . وكان بودي ان اقوم بعمل يتسم بالهمجية .

واردفت المسخ تقول :

- هذه الوثيقة لا تفيدك .

فسألتها بمجاملة ساخرة :

- ابيدولك، ان بطاقة هويتي الشخصية ستكون كافية؟

- بطاقة الهوية الشخصية . . ؟

فكرت قليلاً، وعادت تمنع النظر في الرسالة، ثم قررت :

- كلا، بطاقة الهوية الشخصية وحدها لا تكفي، لا، ليس على المغلف

سوى الحروف الأولى من الاسم فقط، يتعين عليك أن تقدم لي أيضاً، وثيقة

اثبات اقامة . والا فبطاقة الخدمة العسكرية، لأنها تتضمن مكان الاقامة .

ثم فكرت ثانية وازافت تقول :

- وبما انه يتعذر الا تكون قد غيرت مكان اقامتك منذ أن بلغت الثامنة

عشر من عمرك، فمن المؤكد انك ستحتاج إلى وثيقة اثبات اقامة ايضاً .

انفجر في اعماقي غضب جامح، احسست انه كان يطال ماري ايضاً،

والاغرب من هذا انه كان يطال ميمي كذلك .

فصحت وانا انصرف :

- ابعثي بها كما هي ، واذهي إلى جهنم .

وغادرت مركز البريد ، وفي اعماقي يتحرك الف شيطان ، وحتى اني فكرت بالعودة الى النافذة عساي اتمكن بصورة اوباخري من احراق جعبة الرسائل :
ولكن كيف . . . ؟ بالقاء عود ثقاب . . ؟ من السهل ان ينطفئ وهو في طريقه اليها . لو القيت اولاً دفقة من النفط فسيكون التأثير مؤكداً ، لكن ذلك يعقد الامور . وفكرت مع ذلك ان انتظر خروج الموظفين المناوين كي اشتتم تلك العانس .

بعد ساعة من الانتظار، قررت ان اذهب . ما عساي اجني ، في نهاية المطاف ان شتمت تلك البلهاء . . . ؟ لقد اجتررت طيلة تلك الفترة سلسلة من الخواطر، ادت الى تهدة روعي : كانت الرسالة موفقة تماماً، ويستحسن ان تأخذ طريقها إلى ماريا (كثيراً ما حدث لي ما يلي : اصارع بلا تعقل ، لازالة عقبة تحول بيني وبين ما اعتبره لازماً او ملائماً ثم استسلم للهزيمة ساخطاً، لاجد بعد مدة من الزمن ان القدر في النهاية كان مصيباً) والحقيقة هي انني ، عندما شرعت في كتابة الرسالة ، لم افكر ملياً ، وحتى بعض عباراتها الجارحة ، كانت تبدو لي أنها لا تستحقها . ولكن في تلك اللحظة ، عندما فكرت في كل ما سبق الرسالة ، تذكرت فجأة حلماً رأيته في احدى ليالي سكري تلك : . . . كنت اتجسس من مخبأ ، فرأيت نفسي جالساً على كرسي ، وسط غرفة مظلمة ، لا أثاث فيها ولا سواء وخلفي شخصان ينظر احدهما إلى الآخر نظرات شيطانية ساخرة . كان اولهما ماريا وكان الآخر هونتر .

عندما تذكرت هذا الحلم تملكني حزن لا يرحم ، فغادرت مركز البريد ، وبدأت أمشي متحاملاً على نفسي .

ما ان مضى قليل من الوقت حتى وجدتني في حديقة لاريكوليتا اجلس على مقعد تحت شجرة كبيرة وارفة . وشرعت الاماكن والاشجار والممرات التي شهدت أحلى اوقاتنا تحول مسار أفكارني . ما الذي كان ، في نهاية الامر يجعلني اكن العداء لماريا يا ترى . . ؟ وبدأت اطيب لحظات حبنا (لفتة منها ، نظرة حنان ، يدها وهي تداعب شعري) تمتلك روحي برفق وعناية ، كتلك التي نحتضن بها مخلوقاً عزيزاً اصيب بحادث واصبح لا يقوى على تحمل ادنى قسوة مهما كانت قليلة الاهمية . وعدت شيئاً فشيئاً ، استرد هدوئي ، وأمتلك زمامي ، فاخذ حزني

يتحول إلى قلق، وكراهيتي لماريا تتحول إلى كراهية لذاتي، وشرودي يتحول إلى شعور طارئ بضرورة الاسراع إلى منزلي. وبقدر ما كنت اقتررب من المرسم، كنت ادرك بصورة اوضح، ما الذي كنت اريده: ان أكلم ماريّا، ان اهتف الى المزرعة حالاً، وبلا هدر للوقت. كيف لم يخطر ببالي ذلك من قبل...؟

عندما اتصلت هاتفياً بالمزرعة، كدت افقد القدرة على الكلام، اجابني احد الخدم فطلبت منه ان يصلني بالسيدة ماريّا حالاً، وبلا أي تأخير، وما ان انقضت لحظات، حتى سمعت صوته ثانية يقول، إن السيدة ستهتف لي خلال مدة ساعة تقريباً.

بدا لي الانتظار طويلاً لا نهاية له.

لا اتذكر ما دار بيننا في تلك المحادثة الهاتفية تماماً، انها اذكر اني، بدلاً من ان اطلب منها الصفح، بسبب تلك الرسالة (التي كانت دافعي لتلك المكالمة) وجدتني أقول ما هو أقسى من مضمونها. ومن المؤكد أن ذلك لم يحدث بلا سبب معقول، والحقيقة هي اني بدأت اكلّمها برقة وتواضع، لكن الألم الذي كان يخالط نبرة صوتها، وعدم ردها على أي من اسئلي المحددة، كما هي عاداتها، اخذ يثير سخطي. وكان الحوار أوبالآخرى، حديثي الرتيب، يزداد عنفاً، وبقدر ما كان عنفه يشتد كانت هي تبدو اكثر تألماً وذلك كان بالمقابل يزيدني سخطاً، لأنني كنت واثقاً من صواب موقفي وباطل تألمها. وانتهى بي الأمر إلى أن أصرخ في وجهها قائلاً اني قد انتحر، وانها ليست سوى مهرجة، واني بامس الحاجة إلى رؤيتها في بونيس ايريس.

لم تجب على أي من اسئلي المحددة، ولكنها وعدت، بسبب الحاحي ووعيدي بالانتحار، ان ترجع إلى بونيس ايرس في اليوم التالي (رغم انها لم تكن تعلم لماذا...).

قالت بصوت واهن :

- لن نجني سوى الاساءة إلى بعضنا البعض ، بقسوة ، مرة اخرى .
قلت لها :

- ان لم تأت سوف انتحر . فكري جيداً قبل أن تتخذي أي قرار .
وعلقت سماعة الهاتف ولم أضف اية كلمة اخرى ، والحقيقة هي اني كنت في
تلك اللحظة مصمماً على الانتحار إن لم تأت لتوضيح الموقف . وشعرت بارتياح
غريب وانا اقرر «سوف ترى» وكأن الأمر ليس سوى نوع من الانتقام .

كان ذلك اليوم بغيضاً .

غادرت مرسمي وقد استحوذ علي غضب عارم . وعلى الرغم من انني كنت سأراها في اليوم التالي ، فقد كنت مكتئباً ، وشعرت بحقد دفين مبهم ، اعتقد الآن ، بانه كان حقداً علي انا بالذات ، لأنني كنت أعلم في قرارة نفسي ، ان شتائي الفظة لا تستند إلى أي اساس من الصحة . ولكن كان يؤجج ثورة غضبي ، انها لم تكن تدافع عن نفسها ، كما ان صوتها المشبع بالألم والوضاعة كان ، بدلاً من ان يهديء من روحي ، يثيرني اكثر .

احتقرت نفسي ، افطمت عصر ذلك اليوم في تناول الخمرة ، وأدّى بي ذلك إلى اثارة مشاجرات في احدى حانات شارع الياندر واليم . استأثرت بالمرأة التي بدت لي اكثرهن فجوراً ، وتحديث بحاراً لأنه داعبها بنكته بذيئة . ولا أتذكر بعد ذلك ، سوى اننا بدأنا العراق وسط تهليل الجميع ، وتدخل بعض الحاضرين للتفريق بيننا . ثم اتذكرني مع تلك المرأة في الشارع ، وقد انعشتني برودة الجو . عند الفجر رافقتها إلى المرسم . ما ان وصلنا حتى بدأت تهزأ من لوحة معلقة على حامل . (لا أدري إن كنت قد قلت ان لوحاتي التي تلت منظر النافذة اخذت تتبدل تدريجياً : كأننا أشخاص وأشياء أعمال الفنية القديمة ، قد منيت بكارثة كونية . سوف اتحدث عن ذلك فيما بعد ، لأنني اود الآن ان اروي ما حدث في تلك الأيام الحاسمة) نظرت المرأة الى اللوحة وهي تضحك ، ثم التفتت الي وكأنها تطلب ايضاحاً . قلت لها ألا تضعي الوقت في ترهات . وكما يمكنكم ان تفترضوا فأنا لا يهمني قيد أنملة ، الرأي الذي يمكن أن تكونه تلك البائسة ، عن أعمال الفنية .

كنا في السرير معاً عندما خطرت لي فجأة فكرة مريعة : كانت تعبيرات هذه

الرومانية وأنا أضاجعها ، تشبه تعبيراً لاحظت مرة انه بدر عن ماريا .
فصحت كالمجنون وأنا ابتعد عنها مشمئزاً :

- عاهرة . . . ! لاشك انها عاهرة . . . !

انكفأت الرومانية كالأفعى ، وعضت على ذراعي حتى ادمته . كانت
تحسب انني اعنيها . انتفضت يملأني احتقار وحقد على البشرية جمعاء ، ثم
سحبته من الرسم وأنا اشبعها ركلاً وقلت لها انني سأذيقها ميتة الكلاب ان لم
تذهب في الحال وخرجت وهي تصرخ وتكيل الشتائم رغم كمية النقود التي رميت
بها خلفها .

اصبت بالذهول ، ووقفت مدة طويلة وسط الرسم ، لا أدري ماذا افعل ،
ولا اهتدي إلى ما يساعدي على تنسيق مشاعري وافكاري . لكنني في نهاية
المطاف حزمت امري : ذهبت إلى الحمام ، وملأت المغطس بالماء البارد ، ونزعت
ملابسي ، ثم تمددت فيه . كنت اود ان افكر بوضوح ، ولذا بقيت في الماء حتى
انتعشت تماماً ، وشيئاً فشيئاً تمكنت ان اعيد إلى عقلي كامل نشاطه . حاولت ان
افكر بدقة مطلقة ، لأنني شعرت اني قد وصلت إلى نقطة حاسمة . ماذا كانت
نقطة البدء . . ؟ تداعت كلمات كثيرة ، عندما طرحت هذا السؤال على نفسي .
كانت تلك الكلمات هي : رومانية ، ماريا ، عاهرة ، لذة ، تصنع وفكرت : ان تلك
الكلمات لا بد وان تمثل الواقعة الأولية ، والحقيقة الجوهرية التي ينبغي ان انطلق
منها . وبذلت مزيداً من الجهد ، كي ارتبها في النسق الذي يجب ان تكون فيه ،
حتى توصلت الى صياغة الفكرة في هذه الصيغة الفظيعة التي لا يرقى اليها
الشك : « . . . ماريا والعاهرة أبدتا تعبيراً مماثلاً . تكلفت العاهرة اللذة ، وكذلك
تكلفت ماريا اللذة . ماريا إذن عاهرة . . . »

وصرخت وأنا اقفز من المغطس :

- عاهرة . . . عاهرة . . . عاهرة . . . !

كان عقلي قد بدأ ينشط كما في أفضل أيامي إشراقاً: رأيت بجلاء أنه لا بد لي من ان اكون حاسماً، والا استسلم إلى خداع صوتها الحزين وروحها المراوغة مرة اخرى. ينبغي ان ارضخ لتوجيهات المنطق وحسب، وان امضي مع عبارات ماريا المشبوهة، وايماءاتها وصمتها المبهم حتى النهاية وبلا ادنى وجل.

كنت كمن يستعرض اطياف حلم مزعج، تقوم بحركات دورانية في ضوء بقعة هائلة من نور مبهر. مرت امامي وانا ارتدي ثيابي بسرعة، جميع لحظات الشك والريبة: المكالمات الهاتفية الاولى مقرونة بالقدرة العجيبة على التصنع والاحتراف الطويل الذي كان يسفر عنه تلاعبها في نبرات صوتها. ما يحيط بها من ظلال غامضة كان يفضحها الكثير من عباراتها المبهمة. ذلك الخوف من أن «تؤذيني»، الذي لا يمكن ان يعني سوى: «سوف اؤذيك باكاذيبى وتناقضاتي وتصرفاتي الخفية وعواطفى ومشاعري المصطنعة»، فهي لا يمكن ان تسيء إلى لو احببني حباً حقيقياً. مشهد اعواد الثقاب المؤلم. كيف كانت في البدء تنفر حتى من قبلي، وكيف استسلمت للمتعة الجسدية عندما وضعتها امام خيارين. اما الاعتراف بنفورها واشمئزازها من متعة الجسد، او التسليم، في احسن الأحوال، بان حبها لي، ليس سوى تعبير عن مشاعر الامومة او الاخوة، وهذا ما كان يحول في كلا الحالتين دون أن اصدق اختلاجات المتعة التي كانت تبديها، أو الكلمات التي كانت تتفوه بها، او غيبوبة النشوة التي كانت تكسوملايحها. خبرتها الجنسية الدقيقة، التي يصعب ان تكون قد اكتسبتها من فيلسوف رواقى كأجينيدي. اجاباتها على اسئلي بصدد حبها لزوجها، التي كانت تبرهن، مرة اخرى، على قدرتها على الخداع بافتعال الاحاسيس والمشاعر. حلقة الاسرة المكونة من سلسلة من المنافقين والكذابين. الرصانة والمهارة التي لجأت اليهما كي تخدع ابني عمها في مسألة لوحات الميناء المزعومة. المشهد عند العشاء في المزرعة، ونقاشهما في الطابق الأول، ومشاعر الغيرة التي بدت على وجه هونتر. تلك العبارة التي تسربت منها

عند الجحرف : « . . . كما كنت قد اخطأت مرة . . . » . . . مع من . . . ومتى . . . وكيف . . . ؟ و « . . . الوقائع العاصفة القاسية . . . » التي حدثت لابن عمها الآخر، كانت أيضاً عبارات تسربت من بين شفيتها بلا وعي نم عنه سكوتها وعدم ردها على ما طلبته من ايضاح لأنها لم تكن تصغي الي، وبكل بساطة لم تكن تسمعتني وهي مستغرقة في طفولتها التي لعل منها قد حصلت على الاعتراف الوحيد الاصيل الذي افضت به بحضوري . واخيراً ذلك المشهد المريع مع الرومانية او الروسية او كائنة من كانت . أو تصدر عن تلك البهيمة القذرة التي كانت تسخر من لوحاتي ، وعن تلك المخلوقة الرقيقة التي كانت تشجعني على الرسم ، اختلاجات المتعة ذاتها في لحظة من لحظات حياتها . . . !
يا إلهي . . . اليس مدعاة لليأس من الطبيعة الانسانية، مجرد التفكير بان انفاقاً مظلمة خفية تمتد ما بين بعض الحان براهمز، وبين مصرف للقذارة . . . ؟

كثير من النتائج التي خلصت اليها . بعد ذلك الفحص الواعي ، انما التصوري ، كانت افتراضات لم اتمكن من اثبات صحتها ، رغم يقيني باني لم اكن مخطئاً . ولكن ادركت فجأة اني كنت حتى تلك اللحظة . اسقط من اعتباري فرصة استقصاء هامة وهي : الاطلاع على رأي اشخاص آخرين . ورحت ، لأول مرة ، افكر بارتياح شديد ووضوح لا عهد لي به من قبل اطلاقاً ، في اجراء كهذا ، وفي الشخص المناسب : انه لارتيغ ، كان صديق هونتر ، صديقه الحميم ، وكان في الواقع انساناً حقيراً مثله : كتب ديوان شعر عن الغرور في جميع الامور الانسانية ، لكنه كان يشكو داءاً من انهم لم يمنحوه الجائزة الوطنية . لم يكن يشيني اي تردد ، وباشمئزاز بالغ ، انما بحزم ، اتصلت به ، وقلت له انه يتعين علي ان اراه حالاً ، وذهبت الى منزله لاقابله . امتدحت ديوان شعره ، وكان يود الاسترسال في الحديث عن نفسه ، فتضايق كثيراً عندما فاجأته بسؤال في منتهى الصراحة ، كنت قد اعدته سابقاً :

- منذ متى اصبحت ماريا ايريبارني عشيقة هونتر؟

لم تكن امي تسأل أبداً إن كنا أكلنا تفاحة ، لأننا كنا سننكر ، بل كانت تسأل كم تفاحة أكلنا مبتدئة بدهاء ، تقصي ما تود معرفته ، وهو ، هل أكلنا الفاكهة أم لا ، وهكذا كنا ننجر بخفة تحت تأثير السؤال عن الكمية ، فنجيب اننا أكلنا تفاحة واحدة فقط .

لارتيغ مغرور ، لكنه ليس بليداً : شك في ان سؤالي ينطوي على امر غامض ، وظن انه يتجنب الانزلاق عندما اجاب :
- لا أعلم شيئاً عن ذلك .

ثم عاد يتحدث عن الديوان والجائزة ، فصحت باشمئزاز بالغ :

- ياله من ظلم بالغ ارتكبه بحق ديوانك . . !
وخرجت مسرعاً . لم يكن لارتينغ بليداً ، ومع ذلك ، لم يدرك ان كلماته كانت
تكفيني .

كانت الساعة تقارب الثالثة عصراً . لا بد وان تكون ماريا قد وصلت إلى
بوينس ايرس ، اتصلت بها هاتفياً من احد المقاهي : لم اقو على الانتظار حتى
وصولي إلى المرسى . ولما اجابتنى قلت لها :
- يجب أن أراك حالاً .

حاولت أن أخفي ضعفتي خشية أن يراودها الشك ، فتخلف عن الموعد ،
واتفقنا على ان نلتقي عند الساعة الخامسة في حديقة لاريكوليتا ، كعهدنا دائماً .
قالت بأسى :

- حسناً ، لكنني لا أرى اننا سنجني اية فائدة .
اجبتها :

- امور كثيرة . . . امور كثيرة .

فسألت بصوت يخالطه اليأس :

- أعتقد ذلك . . ؟

أجبت :

- بلا شك .

قالت :

- لكنني اعتقد اننا لن نحصد سوى مزيد من الاذى ، ومزيد من الهدم في

الجسر الوامن الذي يصل بيننا ، وسنسيء الى بعضنا البعض بقسوة اشد وطأة .

لقد اتيت لأنك طلبت ذلك بالحاج ، وكان ينبغي ان ابقى في المزرعة : ان هونتر

مريض .

قلت في دخيلتي «كذبة اخرى» ثم اجبتها بجفاء :

- شكراً . اتفقنا اذن على اللقاء عند الساعة الخامسة تماماً .
وافقت ماريا وهي تتنهد .

كنت قبل الخامسة في حديقة «لاريكوليتا»، انتظر على المعقد الذي اعتدنا ان نجلس عليه سوياً. وما ان رأيت الأشجار والممرات والمقاعد التي كانت شواهد على حبنا، حتى خيم علي الحزن وغمرت روحي الكآبة. فكرت بياس وحسرة في اللحظات التي قضيناها ما بين حديقة «لاريكوليتا» وحديقة فرنسا، وكيف اني آمنت بخلود حبنا، الذي كان يبدو في تلك الاثناء، بعيد المنال. كل شيء كان عجبياً مشرقاً، وكل شيء اصبح الآن قائماً متجمداً بارداً في عالم لا يحس ولا يبالي. وللحظة فان ذعري من تهديم ما تبقى لي من حبنا، والبقاء وحيداً إلى الأبد، جعلني اتسرد. وفكرت، لعله من الممكن أن أطرح جميع الشكوك التي تعذبني جانباً. ماذا يعني ما كان من امر ماريا خارج نطاق علاقاتنا...؟ وحسبت وانا أرى تلك الأشجار وتلك المقاعد أنني لا أستطيع صبراً على فقدان مساندتها أبداً، حتى وإن لم يتبق سوى تلك اللحظات من الوصال ومن الحب الغامض الذي يجمعنا. وبقدر ما كنت اتوغل في هذه التأملات، كانت تملكني اكثر فأكثر، فكرة تقبل حبها هكذا كما هو بلا شروط وتخيفني اكثر فأكثر، فكرة البقاء وحيداً خالي الوفاض من أي شيء على الاطلاق. ومن ذلك الرعب أخذ ينمو ويتراعى ضرب من التواضع الذي يمكن ان يتوفر فقط، عند المخلوقات التي لا تملك ارادة الاختيار. واخيراً عندما انتبهت إلى ان الاوان لم يفت بعد، وإلى انه يمكن لي ان ابدأ حياة جديدة منطلقاً من لحظة الصفاء تلك، بدأت تملكني سعادة لا حدود لها.

لكن ويا للأسف، فقد خيبت ماريا املي مرة اخرى. عند الساعة الخامسة والنصف، انتباني القلق وجن جنوني، فعاودت الاتصال هاتفياً، قبل لي انها عادت إلى المزرعة بصورة مفاجئة. ومن دون ان ادرك ماذا كنت أفعل صرخت بالخدمة:

- ولكننا كنا قد اتفقنا على ان نلتقي عند الساعة الخامسة!

فاجابتنى بشيء من الذعر:

- لا علم لي بشيء يا سيدي . لقد خرجت السيدة في السيارة منذ فترة

وجيزة وقالت انها ستبقى هناك مدة اسبوع على أقل تقدير.

اسبوع على أقل تقدير...!.. بدا ان العالم ينهار، وان كل شيء غير

معقول ولا نفع فيه . خرجت من المقهى اسير على غير هدى . رأيت اشياء

سخيفة : مصابيح ، اناس يروحون ويحيئون ، كما لو ان في ذلك جدوى . كم كنت

انشد رؤيتها عصر ذلك اليوم ، وكم كنت بأمس الحاجة اليها . . . ! وكم كان نذراً

يسيراً ما كنت مستعداً لطلبه ، بل لاستجدائه منها . . . ! ولكن ، فكرت بمرارة

بالغة ، ان كان لها ان تختارين مواساتي في احدى الحداثق ، وبين مضاجعة

هونتر ، في المزرعة ، فلا يمكن ان يكون هناك أي مجال للشك ابداً . وفيما كنت

مستغرقاً في هذا التفكير ، خطرت ببالي فكرة ، بل كنت على يقين من امرها .

عدوت بضعة مئات الأمتار التي تبقت لاصل إلى المرسوم ، ومن هناك عاودت

الاتصال هاتفياً بمنزل اجيندي ، سألت ان كانت السيدة قد تلقت مكالمة من

المزرعة قبل ان تذهب .

اجابتنى الخادمة بعد فترة وجيزة من التردد :

- نعم

- مكالمة من السيد هونتر ، أليس كذلك . . ؟

تلکأت مرة اخرى ، وسجلت في ذاكرتي تردها الأول والثاني ، ثم قالت

اخيراً .

- بلى .

كانت تتملكني آنشد مرارة انتصار شيطاني . فالأمر اذن ، كما كان حدسي

تماماً . ! واستبد بي في الوقت ذاته ، شعور بوحدة مطلقة ، وغرور احق : غرور باني

لم أكن مخطئاً .

فكرت في ما بيللي

كنت على أهبة الانطلاق عندما راودتني فكرة، ذهبت إلى المطبخ، تناولت سكيناً كبيرة وعدت إلى الرسم. ما اقل ما بقي من اعمال خوان بابلو كاستيل الفنية القديمة. . ! سيجد اولئك السخفاء الذين شبهوني بمهندس، اسباباً للاعجاب الآن! وكما لو أن الانسان يمكن ان يغير حقاً. . . ! كم من أولئك السخفاء ادرك ان بركاناً على وشك الانفجار، كان يكمن وراء هندساتي، ووراء «الناحية الفكرية»؟. لا احد. ولكن سيكون لديهم الآن متسع من الوقت ليروا هذه الأعمال الشائخة وقد استحالت مزقاً، وهذه التماثيل ارباً، وهذه الانقاض دُخاناً، وهذه السلام جحيماً. . ! . هنا كانت في يوم من الأيام كمتحف كوابيس قد تحجرت، كمتحف لليأس والعار. ولكن هناك ما كنت اود تحطيمه من دون ان اترك له اي اثر. القيت عليه النظرة الأخيرة، واحسست باختناق مؤلم، لكنني لم اتردد من خلال دموعي المنهمرة رأيت كيف كانت ملامح ذلك الشاطيء الموحش، وتلك المرأة البعيدة المتعطشة، وذاك الانتظار الطويل، تنهار مزقاً كلها. دست اشلأها ومرغتها إلى ان تحولت الى اسمال وسخة. سوف لن يلقي ذلك الانتظار السخيف اي جواب بعد الآن ابداً. . . ! لقد ادركت، اكثر من أي وقت مضى، ان ذلك الانتظار كان عقياً تماماً. . . !

هرعت إلى منزل مايبلي فلم أجده: قيل لي إنه لا بد وأن يكون في مكتبة (فيو) توجهت إلى المكتبة فوجدته هناك. جذبته من ذراعه وانتحيت به جانباً، وقلت له انني بامس الحاجة إلى سيارته. نظر إلي بدهشة، وسألني ان كان هناك ثمت امر خطير. لم أكن قد اعددت نفسي لهذا الموقف، لكن خطر بيالي ان اقول له ان حالة والدي بالغة الخطورة، والقطار لا يسافر قبل يوم غد. تطوع ان يأخذني هو فرفضت. قلت له، انني افضل ان اذهب وحدي. عاد ينظر إلي بدهشة، ولكن انتهى به الأمر إلى تسليمي مفاتيح السيارة.

كانت الساعة تشير إلى السادسة مساءً . قدرت أنه يمكن أن أصل بسيارة مايلي خلال اربع ساعات ، بحيث اكون هناك عند الساعة العاشرة ليلاً : وفكرت : « انها ساعة ملائمة » .

ما ان خرجت من المدينة ، واتخذت طريقي في اتجاه «ماردل بلاتا» حتى اطلقت السيارة بسرعة مائة وثلاثين كيلومتراً في الساعة ، وبدأت اشعر بنشوة غريبة ، اعزوها الآن إلى ثقتي بانني كنت ، في نهاية المطاف ، مضي امراً محدداً . فيها هي ، من كانت تبدو كأنها تقف وراء جدار زجاجي منيع استطيع من خلاله ان اراها ، ولكن يستحيل علي ان اسمعها او المسها . وهكذا مع اليأس والكآبة عشنا ، والجدار الزجاجي يفصل بيننا .

في غمرة تلك النشوة ، كانت تتابني مشاعر ذنب وحب وكراهية ، تلوح لي ثم تتوارى تباعاً : كانت قد ادعت أنها مريضة ، فزادني ذلك حزناً ، وكنت قد اصبت عندما اتصلت ثانية بمنزل اجيندي فملأني ذلك غماً . أماريا ، هي التي يمكن ان تضحك بخفة ، ويمكن ان تستسلم بين ذراعي ذلك الفاجر ، ذلك الداعر ، ذلك الشاعر الدعي المغرور . . . ! كم كان ذلك مدعاة احتقاري لها . . ! نشدت المتعة الموجهة ، وأنا أتصور قرارها الأخير هذا في صورته الأكثر تنفيراً : فمن جهة كنت أنا ، وكان الموعد ان تلقاني مساء ذلك اليوم . لماذا . . . ؟ . . . كي نتحدث عن امور مبهمه ومريرة ، كي نقف ثانية عبر الجدار الزجاجي وجهاً لوجه ، كي نتأمل نظراتنا المتعطشة اليائسة ، كي نحاول فهم طلاسمننا ، كي نتمنى عبثاً أن يمسي أحدنا الآخر ويلامسه ويداعبه من خلال الجدار الزجاجي ، كي نحلم مرة اخرى ذلك الحلم المستحيل . ومن جهة اخرى كان هونتر ، وكان يكفيه ان يتناول الهاتف ويطلب منها الذهاب كي تهول بسرعة إلى سريريه . كم كان مضحكاً وكم كان محزناً ذلك كله . . . !

وصلت المزرعة عند الساعة العاشرة والرّبع . تركت السيارة في الطريق العام . كي لا يسترعي صوت محركها الانتباه ، ومشيت . كانت حرارة الجولا تطاق ، وكان يخيم هدوء ثقيل ، . ولا تسمع سوى همهمات امواج البحر . كان ضوء القمر يترأى ما بين فينة وأخرى من خلال الغيوم الداكنة ، واستطعت ان اشق طريقي ، دون كبير عناء على طول مدخل المزرعة ، تحف بي اشجار الكينا . عندما وصلت إلى الدار الكبيرة وجدت الاضواء تتلأأ من الطابق الأرضي ، وحسبت انها لا يزالان بعدُ في غرفة الطعام .

كنت اشعر بحرارة الجو الساكنة ، التي تسبق عادة عواصف الصيف العاتية وتنذر بهبونها . كان من الطبيعي ان يخرجوا بعد العشاء . تواريت في الحديقة في زاوية تتيح لي مراقبة من يمر على السلم ، وانتظرت .

كان انتظاراً طويلاً لا نهاية له . لا ادري كم مضى في حساب عقارب الساعات ، من ذلك الزمن الكوني الغامض الذي لا يمت بصلة إلى مشاعرنا ومصائرنا ولا يعبأ بنشوء حب او انهياره ، ولا بانتظار موت . لكن ما انقضى من زمني أنا كان رجباً معقداً ومشحوناً بأشياء وذكريات ، كان نهراً مظلماً صاخباً حيناً ، وهادئاً هدوءاً غريباً حيناً آخر كأنه بحر ساكن أزلي . حيث أقف فيه ومارياً ، وجهاً لوجه ، جامدين يتأمل احدهما الآخر . وكان في أحيان أخرى يعود ثانية ليصبح نهراً يجرفنا كأننا في حلم من احلام الطفولة ، وكنت أراها تنطلق على جوادها ، شعرها تذروه الرياح ، وعيناها مبهورتان ، واراني في قرיתי في الجنوب ، مريضاً في غرفتي ، وجهي ملتصق بزجاج النافذة ، اشاهد الثلج بعينين مبهورتين ايضاً . وكنا كما لو اننا نعيش معاً في سراديب او انفاق متوازية ، بروحين متماثلتين ، وزمنين متماثلين ، ولا يعرف أي منا أنه يسير بمحاذاة الآخر ، لنجد أنفسنا في نهاية هذه الانفاق أمام مشهد قمت أنا برسمه ، كرمز مكرس لها وحدها ، كأنه إعلان سري على أنني كنت هناك ، وعلى ان السراديب في نهاية المطاف قد اتحدت ، وان ساعة اللقاء قد ازفت .

ساعة اللقاء قد أزفت . . . ! . . . ولكن ، أحقاً أن السراديب قد اتحدت وأن روحينا قد توصلتا . . ؟ . . . يا لغباء ماتوهمت في كل هذا . . ! لا ، فالسراديب ما زالت متوازية كما كانت ، وان كان الجدار الذي يفصل بيننا أصبح الآن ، كجدار زجاجي ، يمكن أن أرى ماريما من خلاله كصورة صامتة لا يمكن مسها . . لا . . . وحتى ذلك الجدار لم يكن كذلك دوماً : كان احياناً يعود ثانية ليصبح من حجر أسود ، وعندئذٍ ، لأدري ملاكان يجري وراءه ، وماكان من أمرها في تلك الفترات المجهولة ، وماكان يقع من أحداث غريبة . وحتى كنت أحسب ، أن محياها كان في تلك الفترات يتغير وان تكشيرة سخرية كانت تشوه وجهها ، وانها ربما

كانت تتبادل الضحكات مع شخص آخر، وإن قصة السرايب كلها كانت اختلاقاً ومظنة يثيران السخرية، وأنه كان هناك، في جميع الأحوال، نفق واحد فقط، مظلم وموحش، هو نفقي أنا، النفق الذي أمضيت فيه طفولتي، وصباي، وعمري كله. وكنت قد رأيت هذه الفتاة من خلال إحدى تلك القطع الشفافة في الجدار الحجري، واعتقدت بسذاجة، أنها كانت آتية من نفق آخر، مواز لنفقي، بينما هي في الواقع، تنتمي إلى العالم الواسع، إلى عالم الذين لا يعيشون في الانفاق، والذي لا حدود له، ولعلها، بدافع من الفضول اقتربت من إحدى نوافذ الغريبة، وواجهت مشهد عزلي الأبدية، أو اسرتها اللغة الخرساء، مفتاح سر لوحتي. وعند ذلك: بينما كنت ما أزال أتوغل في سرادبي، كانت هي في الخارج تعيش حياتها العادية، الحياة الصاخبة التي يحياها أولئك الذين يعيشون في الخارج، تلك الحياة الغريبة التافهة حيث الرقص والحفلات والمرح والمجون. وكنت في بعض الأحيان، عندما امر امام إحدى نوافذ، أجدها تنتظرني بشوق صامتة (لم تنتظرني...؟.. ولم صمتها وشوقها...؟) ولكن، كان يحدث في أحيان أخرى أن تصل متأخرة، أو تنسى هذا المخلوق المسكين الحبيس، عند ذلك. كنت أراها من بعيد، ووجهي ملتصق بالجدار الزجاجي، تضحك أو ترقص بلا مبالاة، أو - ما كان أسوأ - أنني كنت، لا أراها أبداً، وأتصورها في أماكن، صعبة، أو ماجة، فأشعر بعزلة مطلقة تطبق على مصيري تفوق حدودها كل ما كنت أتصور.

بعد ان انقضى هذا الزمن الرحب، زمن البحار والانفاق، هبطا السلم.
عندما رأيتها تتأبط ذراعه شعرت بأن قلبي اصبح بارداً صليداً كقطعة من جليد.

نزلا ببطء، كما لو انهما ليسا على عجلة من امرهما، وفكرت بمرارة، ولماذا العجلة...؟ ومع ذلك، كانت تعلم أني كنت بأمرس الحاجة اليها، وأنني كنت، عصر ذلك اليوم، أنتظرها وكنت عبثاً، أعاني من قسوة كل لحظة من لحظات ذلك الانتظار الطويل. كانت تعلم في تلك اللحظة ذاتها التي كانت تتمتع فيها بهدوء أنه كان يعذبني جحيم لا يطاق من الأفكار والتصورات. أي وحش قاس حقير قدر، يمكن أن يكون قد قبع في قلب من هي أشد النساء رقة.....
كان يمكن لها أن تنظر إلى السماء العاصفة كما هو حالها في تلك اللحظات وأن تمشي متأبطة ذراعه (ذراع ذلك التافه!)، وتسير الهوينا في الحديقة تستنشق شذى الازهار، وتجلس إلى جانبه فوق العشب، رغم انها تعلم اني في تلك اللحظات بالذات، انا الذي كنت أنتظرها بلا جدوى، واتصل بمنزلها لاتلقى نبأ سفرها إلى المزرعة، سوف اكون في صحراء مظلمة، تعذبني ديدان حائعة لا حصر لها، وتنهش في جميع احشائي بلا هوادة.

ورغم ذلك، كانت تتكلم مع ذلك الوغد التافه...!، عن أي شيء كان بوسع ماريا ان تحدث تلك الشخصية النتنه...؟.. وبأية لغة يا ترى...؟ أم لعلني أنا ذاك الوغد التافه...؟ أولست أنا من كانا يهزان منه في تلك اللحظة...؟
أولست أنا الأبله، الأحق ورجل السرداب والرسائل الغامضة...؟

تنقلا في الحديقة طويلاً، وادركتنا العاصفة داكنة يمزق ظلمتها توالي الرعد والبرق. وبدأت الرياح تعصف بشدة، حاملة طلائع قطرات المطر، فاضطرا إلى اللجوء إلى البيت مسرعين. وبدأ قلبي يدق بعنف موجه، وأحسست من مخبأي

بين الأشجار، انني، في نهاية المطاف، كنت اشهد لحظة الكشف عن سر رهيب
بغض، طالما راود مخيلتي.

ترصدت مصابيح الطابق الأول، الذي كان يلفه ظلام مطبق. وسرعان ما
رأيت مصباح غرفة النوم الوسطى، غرفة هونتر، يضيء. كان كل شيء يبدو حتى
تلك اللحظة عادياً: غرفة نوم هونتر تقابل السلم، وكان من المنطقي ان يشعل
مصباحها أولاً. والآن، لا بد وان يشعل مصباح غرفة النوم الأخرى. كانت
خفقات قلبي العنيفة، تسجل بصخب، الثواني التي يمكن ان يستغرقها وصول
ماريا من السلم حتى غرفتها.

لكن المصباح الآخر لم يشتعل.

يا إلهي... ليس لدي قدرة للتعبير عن الاحساس بالوحدة المطلقة الذي
كانت روحي تنضح به! شعرت كأن المركب الأخير، الذي كان بوسعه ان ينقذني
من جزيرتي المقفرة يمر من بعيد، ولا يرى، اشارات استغااثي. واخذ جسمي
ينهار ببطء، كان الشيخوخة قد اردكته فجأة.

شعرت وانا واقف بين الأشجار التي تعبت بها الرياح، تبللني مياه المطر، ان
زمناً لا يرحم كان قد مضى، قبل ان أرى بعيني المبتلتين بالماء والدموع، الضوء
ينير مخدعاً آخر.

اتذكر ما حدث بعد ذلك كما لو انه كابوس، تسلقت، وانا اصارع
العاصفة، قضبان النافذة حتى الطابق العلوي. ثم سرت على السطح إلى ان
عشرت على باب. ولجت منه إلى القاعة الداخلية، وبحثت عن غرفة نومها:
كانت خيوط النور المتسللة من تحت بابها ترشدني إليها بلا أدنى ريب. قبضت
على السكين وانا ارتجف، ثم فتحت الباب. وعندما نظرت إلى بعينين
مشدوهتين، كنت أقف عند العتبة. اقتربت من سريرها، وحينما دنوت
منها، قالت وقد سيطر الحزن عليها:

- ما الذي أنت مقدم عليه ياخوان بابلو. ؟

أجبتها ويدي اليسرى تمسك بشعرها:

- يجب أن أقتلك يا ماري، لقد تخليت عني.

ثم غرزت السكين في صدرها وانا ابكي، فأطبقت فكيها، واغمضت
عينيهما، وعندما سحبت السكين وهي تقطردماً، فتحتها واهنة، ونظرت إلى بآلم
وضعة. شعرت بغتة بأن ثورة غضب عارمة تجتاحني فرحت اشبع صدرها
واحشائها طعناً.

ثم خرجت إلى السطح ثانية، ونزلت مندفعاً، كأن الشيطان قد تملك
روحي إلى الأبد. كان البرق يكشف امامي، لآخر مرة، منظراً كان مألوفاً
لكلينا.

انطلقت إلى بوينس ايرس بسرعة، وصلتها عندما كانت الساعة الرابعة،
أو الخامسة صباحاً. من احد المقاهي، اتصلت بمنزل اجيندي، ايقظته من نومه،

وقلت له بأنه يتعين علي ان اراه توأً ومن دون اضاءة اي وقت، ثم ذهبت إلى منزله في شارع بوساداس على جناح السرعة. كان الخادم البولندي ينتظرني عند باب المبنى. حينما وصلت إلى الطابق الخامس، رأيت أجيندي يقف أمام المصعد وعيناه الضريرتان مفتوحتان على مصراعيهما. جذبته من ذراعه وجررته إلى الداخل. تبني البولندي كالأبله وهو ينظر إلي بدهشة. طلبت منه ان ينصرف، وما ان توارى حتى صحت بالأعمى :

- إني آت من المزرعة...!.. ماريا كانت عشيقة هونتر!
تصلب وجه اجيندي، وبدأت عليه قسائم الموت، واصطكت اسنانه وصاح بحقد دفين:
- أيها الأبله.

اثارني عدم تصديقه، فصحت به:
- انك انت الأبله! ماريا عشيقتي ايضاً، وعشيقة كثيرين غري...!
شعرت بمتعة هائلة، وبينما كان الأعمى يقف كأنه تمثال من حجر، صحت في وجهه:

- نعم، أنا كنت أخدعك...!.. وهي كانت تخدعنا جميعاً...! لكنها لا تستطيع الآن ان تخدع احداً...! اتفهم...؟.. لا تستطيع ان تخدع احداً...!

عوى الاعمى كوحش مفترس، وهجم علي شاهرا يديه اللتين بدتا كأنهما مخلبان وهو يصيح:
- ايها الأحمق...!

انعطفت عن طريقه، فتعثر بطاولة صغيرة وسقط على الأرض، وبسرعة عجيبة تمالك نفسه ثم نهض، وبدأ يطاردني في انحاء الغرفة، وهو يتعثر بالمقاعد وقطع الاثاث، ويجهش بالبكاء، من دون ان يذرف دمعاً، ويردد كلمة واحدة فقط: ايها الاحمق...!

هربت إلى الشارع مندفعاً على السلم ، بعد ان طرحت الخادم أرضاً
عندما حاول اعتراضى . كان يملكنى الحقد والاحتقار والشفقة .
عندما استسلمت فى مخفر الشرطة كانت الساعة تقارب السادسة .
ومن خلال نافذة زنزانتي الصغيرة شاهدت ، كيف كان يولد نهار جديد ،
سماؤه صافية خالية من الغيوم . وتصورت العديد من الرجال والنساء وقد بدأوا
يستيقظون ، ثم يتناولون فطورهم ، ويطالعون صحفهم ، ويتوجهون إلى أعمالهم ،
او يقدمون الطعام إلى أطفالهم ، أو إلى قططهم ، او يعلقون على فيلم الليلة
الماضية .

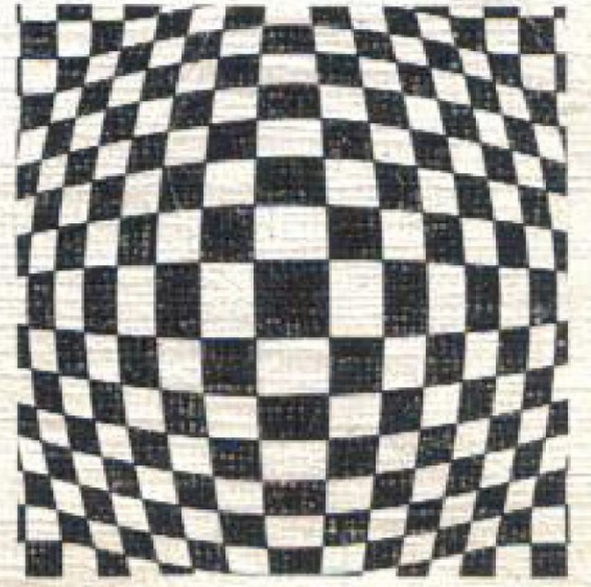
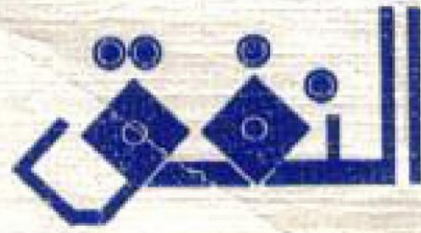
وشعرت ان كهفاً قائماً اخذ يكبر فى اعماقى .

في هذه الأشهر التي أقضيها في السجن ، حاولت مرات عديدة ، ان أمعن التفكير في كلمة الضرير الأخيرة ، كلمة ، احمق . لكن عياء شديداً - أوغريزة سوداوية رقما - كان يحول دون ذلك باستمرار . ولعلي ، في يوم من الأيام أتمكن من ذلك . عندئذ سأقوم بتحليل مايمكن أن يكون قد توفر لاجندي من أسباب قادته إلى الإنتحار .

يمكنني على الأقل ، ان ارسم ، وان كنت اظن أن الاطباء سيضحكون من وراء ظهري سخرية ، مثلما كانوا يضحكون - كما أظن - أثناء المحاكمة ، عندما تحدثت عن منظر النافذة .

كان ثمت مخلوق واحد فقط يفهم رسومي . بينما ، لا بد وان هذه اللوحات ستؤكدهم أكثر فأكثر وجهة نظرهم الغبية . وهكذا ستكون جدران هذا الجحيم يوماً بعد يوم ، أكثر صلابة واشد احكاماً .

انتهى



«أرنستو ساباتو» واحد من كبار أدباء الاسبانية في أمريكا اللاتينية، وأحد عمالقة الفكر والأدب في الأرجنتين. نال شهرة عالمية، منذ أنتج باكورة أعماله «رواية النفق».

وُلد في بلدة «روخاس»، في ريف محافظة «بوينس آيرس» في العام ١٩١١ ونال شهادة الدكتوراة في الفيزياء، ثم درس الفلسفة، وعمل في مختبرات «كوري» في فرنسا، وفي الولايات المتحدة، لكنه عام ١٩٤٥ هجر ميدان العلوم نهائياً ليكرس حياته للأدب.

ألف مجموعة أبحاث وكتب حول الإنسان وازمة العصر، وحصل على عدة جوائز، لكنه ما أن نشر في العام ١٩٤٨ «رواية النفق»، حتى ترجمت إلى معظم لغات العالم. وفي العام ١٩٦١ نشر روايته الثانية «حول أبطال وقبور» فنالت إعجاب كبار الكتاب العالميين من أمثال كامو، وغرين، كواسيمودو، وغيرهم، وترجمت إلى لغات عديدة أيضاً.

ترأس اللجنة الوطنية للمفقودين، التي كان من أهدافها الرئيسية كشف جرائم الحكم العسكري في الأرجنتين.

عالم ساباتو، عالم غريب، خفي، غامض، معقد، صاخب حيناً، وساكن هادئ حيناً آخر. مقتضب يحتاج معه إلى التأمل والتوقف طويلاً، ومتسع رحب نحار كيف نحيط به وتلملم أطرافه.

الناشر

السعر ٥٠ ل . س